حديــث أم زرع

دراسة بلاغية تحليلية

إعـداد

د. عبدالعزيز بن صالح العمَّار

قسم البلاغة والنقد ومنهج الأدب الإسلامي ـ كلية اللغة العربية

جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

حديث أم زرع – دراسة بلاغية تحليلية

د. عبدالعزيز بن صالح العمّار

الملخص:

بدأت هذه الدراسة بمقدمة ذكرتُ فيها أهمية الموضوع، وأسبابَ اختياره، وأشرتُ فيها إلى أن الحديث بحاجة إلى دراسة بلاغية، فبرغم ما كُتب حوله من تأليف وشروح إلا أنه يفتقر إلى دراسة بلاغية، كما تضمنت المقدمة بياناً للمنهج الذي سلكته في هذه الدراسة، وقد قسَّمتُ الموضوع إلى مبحثين: المبحث الأول: مسائل مهمة متعلقة بحديث أم زرع، ذكرتُ فيه أربعة مسائل متعلقة بهذا الحديث، وهي من الأهمية بمكان؛ إذ تُعد كاشفة وممهدة للحديث وللدراسة كلها، ذكرتُ فيها نصَ الحديث، وتخريجه، كما أشرت إلى الكتب التي شرحت حديث أم زرع، ثم أشرتُ إلى قضية مهمة وهي بيان أن الحديث موقوف على عائشة – رضي الله عنها – وليس مرفوعاً إلى النبي – عليه الصلاة والسلام –، وأما المبحث الثاني، فهو بعنوان: الأسرار البلاغية في حديث أم زرع، درستُ فيه بلاغة الحديث كاملاً، وقد أطلتُ الوقوف فيه مع الأسرار البلاغية التي تضمنها هذا الحديث.

وذلكم هو المراد من هذه الدراسة وصلبها، فوقفتُ مع بلاغة كل امرأة وبينتُ ما اشتملت عليه من البلاغة في ألفاظها وتراكيبها، وقد بينتُ ذلك كله في السياق الذي ورد فيه دون انتزاعه من سياقه الذي جاء فيه، وذلك هو الأولى بالدراسات البلاغية.

ثم ختمت الدراسة بخاتمة اشتملتْ على أبرز النتائج التي خرجتُ بها من هذه الدراسة. ثم ذيلتُ هذه الدراسة بثبت للمصادر والمراجع التي تم الرجوع إليها، والإفادة منها في كتابة هذا البحث.

Um Zarea Hadith

Dr. Adulaziz S. Al-Ammar

Abstract :

I have started my study with an introduction; I mentioned the important of the subject and the reason of chosen it, also I mentioned that the Hadith needs to rhetoric study, in spite of what was written about it the compose and explanation ,but it needs to a rhetoric, as was the introduction due to the methodology of the study. I have divided the subject in to sections: the first section: it was about Um Zarea Hadith, I mentioned four issues related to this Hadith. It is important to explore and introduce for the Hadith and the whole study, I mentioned the Hadith script, the emit, then to the references bOoks that explained Um Zarea Hadith, them I pointed to a very important case the Hadith statement is concerning Aysha (May Allah bless her), but it was not belonging to Prophet Mohammed (PBUH- and the second section , it was addressed by the rhetoric secrets of Urn Zarea Hadith, I have studied all the Hadith rhetoric, and I stand a lot at the rhetoric secrets included in this Hadith.

That was the aim of the study as I stood with each woman to show all what the rhetoric has been included in its pronounces and structures, as I built the sequences without taking the real sequences out of Hadith, as it is the priority of the rhetoric study.

I have ended my study with the glossary which included the most important results I concluded of this study, also I have bottomed the study with the approved references and recourses related to the study of the beneficiary of this report.

المقدمــة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلامعلى أشـرف الأنبيـاء والمرســلين ، أما بعد:

فيُعدُّ حديث أم زرع من الأحاديث المشهورة الذي تلقتها الأمة بالقبول، فقد رواه جمع من الأئمة، وله مكانة في النفوس، كما أخذ حقه من الإشادة بـه، والإشـارة إليه، من خلال ما كُتب حوله من الدراسات والشروح.

ولذا فإن من الأسباب التي دعتني للكتابة في هـذا الموضـوع هـو مكانـة هـذا الحديث، ولِما تميز به من خصائص انفرد بها، تتجلى تلك الخصائص في أسلوبه الذي تميز به، والأساليب البلاغية التي تضمنها كلام النسوة عن أزواجهن، فضلاً عن غرابـة موضوعه، وجمال مضمونه، ولذا فإن الفضول يدفع كـثيراً مـن النـاس للوقـوف عنـد كلام هؤلاء النسوة؛ لمعرفة ما تقوله كل واحدة منهن عن زوجها.

وقد كان لغرابة مضمونه أثر في غرابة ألفاظه، فجلُّ حديثهن من غريب اللغـة التي يُحتاج إلى معرفتها والكشف عنها: الرجوع إلى معجمات اللغة، وإلى كتب غريب الحديث، ولهـذه الأمـور مجتمعـة كانـت الرغبـة مـني في الوقـوف مـع هـذا الحـديث، واستخراج أساليبه البلاغية، ونكته البيانية.

والموضوع جديد – فيما يبدو لي – فمع كثرة ما كُتـب حـول هـذا الحـديث، ومع كثرة ما خُصَّ به من الشروح والتأليف إلاَّ أنه يفتقر إلى دراسـة بلاغيـة تـبين مـا توافر فيه من أساليب بلاغية، وتراكيب بيانية، ولذا عقدتُ العزم في الكتابـة في بلاغـة هذا الحديث.

بيد أن الأمر لم يكن سهلاً، ولم يكن الطريق إلى استخراج أسراره البلاغية مُعَبَّداً ولا مُذَللاً، بل كان وعراً صعباً شائكاً، وقد ترددتُ كثيراً في الإقبال على هذه الدراسة، والمضي بها؛ وذلك لغرابة ألفاظ الحديث، وجزالة تراكيبه وقوتها، كما أن دراسة هذا الحديث تستلزم الرجوع إلى معجمات اللغة وقواميسها، وإلى كتب غريب الحديث، وإلى شروح السنة من الصحاح والسنن، وإلى كتب البلاغة، ولم يكن هذا الأمر هيناً، كما أن جزءاً كبيراً من هذه الدراسة قائم على طول التأمل، وإنعام النظر، وإمعان التدبر، ولكن الحمد للهوحده الذي يسَّر، فهو الذي منَّ عليَّ بلطفه وفتحه.

وقد صدَّرتُ هذه الدراسة بمقدمة، ذكرتُ فيها أهمية الموضوع، وأسبابَ اختياره، وخطة البحث ومنهجه، وقد جاء البحث في مبحثين، المبحث الأول: مسائل مهمة متعلقة بحديث أم زرع، ذكرتُ فيه أربع مسائل متعلقة بحديث أم زرع، وهي من الأهمية بمكان؛ إذ تُعد كاشفة وممهدة للحديث وللدراسة كلها، وأما المبحث الثاني، فقد كان بعنوان: الأسرار البلاغية في حديث أم زرع، درستُ فيه بلاغة الحديث كاملاً، وقد أطلتُ الوقوف فيه مع الأسرار البلاغية التي تضمنها هذا الحديث.

ولم أرَ من المناسب تقسيم دراسة الحديث إلى مباحث؛ لعدة أسباب، وذلك أن طبيعة هذه الدراسة التحليلية لا تتحمل هذا التقسيم، فقد أردتُ أن أدرس الحديث كاملاً في سياقه دون تجزئة له ولا تقطيع؛ وذلك أولى، فهي دراسة تحليلية لكل من المفردات، والجمل، والتراكيب كلٌّ في سياقها؛ لِما للسياق من أثر في كشف المعنى، والدلالة عليه وأرى أن هذا المنهج هو الأليق والألصق ـ كذلك ـ بالدراسات البلاغية، خصوصاً في الدراسات القرآنية، والدراسات النبوية، وبهذا المنهج يسلم الحديث من التجزئة والتقطيع، ويُحفظ بهاؤه ورواؤه، وينكشف شيء من أسرار جماله، وبدائع نظمه.

وأحب أن أشير هنا إلى أني اعتمدتُ على رواية البخاري في هذه الدراسة، كما أني لم أغفل الروايات الأخرى، فكنتُ أشير إليها إذا كانت متضمنة أسلوباً بلاغياً، وما عدا ذلك فإني لا أشير إليها.

وقد قصرتُ هذه الدراسة على المسائل البلاغية دون الحديث أو التشعب إلى القضايا الأخرى التي تضمنها الحديث، ولذا جنبتُ هذه الدراسة كثيراً من المسائل التي لا تمت إلى البلاغة بسبب، ولذا لم أتطرق إلى الأحكام الشرعية التي جاءت في ثنايا الحديث، ولم أتطرق ـ كذلك ـ إلى الآداب والحقوق المشروعة بين الرجل وزوجه إلاَّ بالقدر الذي تسمح به هذه الدراسة الذي جاء الحديث بهذا الأسلوب لإظهارها.

وبعد: فهذا ما سعيتُ إلى تحقيقه، والوصول إليه، فإن تمَّ ذلك على الوجه الذي أرجوه فقد حققتُ مرادي، وأصبتُ مبتغاي، وذلك تفضل منه – سبحانه – وتكرم، وإن كانت الأخرى فحسبي أني بذلتُ وحاولتُ، وإن لم أبلغ الكمال فحسبي – أيضاً – أني سعيتُ له واجتهدتُ، والله وحده هو الذي يتولى أمرنا، ويوفقنا إلى السداد والصواب، والحمد لله رب العالمين.

المبحث الأول

مسائل مهمة متعلقة بحديث أم زرع

أولا: نص الحديث:

قال البخاري – رحمه الله -:

(حَدَّثَنَا سُلَيْمَانُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ وَعَلِيُّ بْنُ حُجْرٍ قَالَا أَخْبَرَنَا عِيسَى بْنُ يُونُسَ حَدَّثَنَا هِشَامُ بْنُ عُرْوَةَ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُرْوَةَ عَنْ عُرْوَةَ عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ:

جَلَسَ إِحْدَى عَشْرَةَ امْرَأَةً فَتَعَاهَدْنَ وَتَعَاقَدْنَ أَنْ لَا يَكْتُمْنَ مِنْ أَخْبَارِ أَزْوَاجِهِنَّ شَيْئًا، قَالَتْ الْأُولَى زَوْجِي لَحْمُ جَمَلٍ غَثٌّ عَلَى رَأْسِ جَبَلٍ، لَا سَهْلٍ فَيُرْتَقَى، وَلَا سَمِينٍ فَيُنْتَقَلُ. قَالَتْ الثَّانِيَةُ: زَوْجِي لَا أَبُثُّ خَبَرَهُ؛ إِنِّي أَخَافُ أَنْ لَا أَذَرَهُ، إِنْ أَذْكُرْهُ أَذْكُرْ عُجَرَهُ وَبُجَرَهُ. قَالَتْ الثَّالِثَةُ: زَوْجِي الْعَشَنَّقُ، إِنْ أَنْطِقْ أُطَلَّقْ، وَإِنْ أَسْكُتْ أُعَلَّقْ. قَالَتْ الرَّابِعَةُ: زَوْجِي كَلَيْلِ تِهَامَةَ، لَا حَرٌّ وَلَا قُرٌّ ، وَلَا مَخَافَةَ وَلَا سَآمَةَ. قَالَتْ الْخَامِسَةُ: زَوْجِي إِنْ دَخَلَ فَهِدَ، وَإِنْ خَرَجَ أَسِدَ، وَلَا يَسْأَلُ عَمَّا عَهِدَ. قَالَتْ السَّادِسَةُ: زَوْجِي إِنْ أَكَلَ لَفَّ، وَإِنْ شَرِبَ اشْتَفَّ، وَإِنْ اضْطَجَعَ الْتَفَّ، وَلَا يُولِجُ الْكَفَّ؛ لِيَعْلَمَ الْبَثَّ. قَالَتْ السَّابِعَةُ: زَوْجِي غَيَايَاءُ أَوْ عَيَايَاءُ طَبَاقَاءُ ، كُلُّ دَاءٍ لَهُ دَاءٌ، شَجَّكِ أَوْ فَلَّكِ أَوْ جَمَعَ كُلًّا لَكِ. قَالَتْ الثَّامِنَةُ: زَوْجِي الْمَسُّ مَسُّ أَرْنَبٍ، وَالرِّيحُ رِيحُ زَرْنَبٍ. قَالَتْ التَّاسِعَةُ: زَوْجِي رَفِيعُ الْعِمَادِ، طَوِيلُ النِّجَادِ، عَظِيمُ الرَّمَادِ، قَرِيبُ الْبَيْتِ مِنْ النَّادِ. قَالَتْ الْعَاشِرَةُ: زَوْجِي مَالِكٌ، وَمَا مَالِكٌ؟ مَالِكٌ خَيْرٌ مِنْ ذَلِكِ، لَهُ إِبِلٌ كَثِيرَاتُ الْمَبَارِكِ، قَلِيلَاتُ الْمَسَارِحِ، وَإِذَا سَمِعْنَ صَوْتَ الْمِزْهَرِ أَيْقَنَّ أَنَّهُنَّ هَوَالِكُ. قَالَتْ الْحَادِيَةَ عَشْرَةَ: زَوْجِي أَبُو زَرْعٍ، فَمَا أَبُو زَرْعٍ؟ أَنَاسَ مِنْ

حُلِيٍّ أُذُنَيَّ، وَمَلَأَ مِنْ شَحْمٍ عَضُدَيَّ، وَبَجَّحَنِي فَبَجِحَتْ إِلَيَّ نَفْسِي، وَجَدَنِي فِي أَهْلِ غُنَيْمَةٍ بِشِقٍّ، فَجَعَلَنِي فِي أَهْلِ صَهِيلٍ، وَأَطِيطٍ، وَدَائِسٍ، وَمُنَقٍّ. فَعِنْدَهُ أَقُولُ فَلَا أُقَبَّحُ،وَأَرْقُدُ فَأَتَصَبَّحُ، وَأَشْرَبُ فَأَتَقَنَّحُ، أُمُّ أَبِي زَرْعٍ، فَمَا أُمُّ أَبِي زَرْعٍ؟ عُكُومُهَا رَدَاحٌ، وَبَيْتُهَا فَسَاحٌ. ابْنُ أَبِي زَرْعٍ، فَمَا ابْنُ أَبِي زَرْعٍ؟ مَضْجِعُهُ كَمَسَلِّ شَطْبَةٍ، وَيُشْبِعُهُ ذِرَاعُ الْجَفْرَةِ، بِنْتُ أَبِي زَرْعٍ، فَمَا بِنْتُ أَبِي زَرْعٍ؟ طَوْعُ أَبِيهَا، وَطَوْعُ أُمِّهَا، وَمِلْءُ كِسَائِهَا، وَغَيْظُ جَارَتِهَا. جَارِيَةُ أَبِي زَرْعٍ، فَمَا جَارِيَةُ أَبِي زَرْعٍ؟ لَا تَبُثُّ حَدِيثَنَا تَبْثِيثًا، وَلَا تُنَقِّثُ مِيرَتَنَا تَنْقِيثًا، وَلَا تَمْلَأُ بَيْتَنَا تَعْشِيشًا. قَالَتْ: خَرَجَ أَبُو زَرْعٍ -وَالْأَوْطَابُ تُمْخَضُ - فَلَقِيَ امْرَأَةً مَعَهَا وَلَدَان لَهَا كَالْفَهْدَيْنِ يَلْعَبَان مِنْ تَحْتِ خَصْرِهَا بِرُمَّانَتَيْنِ، فَطَلَّقَنِي وَنَكَحَهَا، فَنَكَحْتُ بَعْدَهُ رَجُلًا سَرِيًّا، رَكِبَ شَرِيًّا، وَأَخَذَ خَطِّيًّا، وَأَرَاحَ عَلَيَّ نَعَمًا ثَرِيًّا، وَأَعْطَانِي مِنْ كُلِّ رَائِحَةٍ زَوْجًا. وَقَالَ: كُلِي أُمَّ زَرْعٍ، وَمِيرِي أَهْلَكِ. قَالَتْ: فَلَوْ جَمَعْتُ كُلَّ شَيْءٍ أَعْطَانِيهِ مَا بَلَغَ أَصْغَرَ آنِيَةِ أَبِي زَرْعٍ. قَالَتْ عَائِشَةُ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: "كُنْتُ لَكِ كَأَبِي زَرْعٍ لِأُمِّ زَرْعٍ" .

ثانياً : تخريجات الحديث :

روى الحديثَ كثيرٌ من الحفاظ والمحدثين، وهو حديث متفق عليه، فقد رواه الإمام أبو عبدالله محمد ابن إسماعيل البخاري (ت ٢٥٦هـ) في كتاب "النكاح"، باب: (حسن المعاشرة مع الأهل)، رقم الحديث (٥١٨٩)، كما رواه الإمام أبو الحسين مسلم بن الحجاج (ت٢٦١هـ)، في كتاب "الفضائل"، باب: (ذكر حديث أم زرع) رقم الحديث (٢٤٤٨)، وممن رواه ـ كذلك ـ الإمام أبو عيسى محمد بن عيسى بن سَوْرَة الترمذي (ت٢٧٩هـ) في "الشمائل" باب: (ما جاء في كلام رسول الله في السمر) برقم (٢٣٥) وكذلك الإمام أبو عبدالرحمن أحمد بن شعيب النسائي (ت ٣٠٣هـ) في "السنن

الكبرى"، في كتاب "عشرة النساء" باب (شكر المرأة زوجها)، رقم الحديث (٩٠٨٩)، وأبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني (ت٣٦٠هـ) في "المعجم الكبير" (٢٣/ ٢٦٦)، وابن حبان (ت٣٥٤هـ) في صحيحه، في كتاب: "إخباره عليه السلام عن مناقب الصحابة، في ذكر قول المصطفى للصديقة بنت الصديق: إنه لها كأبي زرع لأم زرع"، رقم الحديث (٧١٠٤)، والإمام الحسين بن مسعود البغوي (ت٥١٦ هـ) في كتابه "شرح السنة"، في كتاب (النكاح)، باب: (حسن العشرة معهن)، رقم الحديث (٢٣٤٠)، وكذلك الخطيب البغدادي (ت٤٦٣هـ) في "تأريخ بغداد"، برقم (٢٤٦٨)، كما ذكره نور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي (ت ٨٠٧ هـ) في "مجمع الزوائد" في كتاب (النكاح)، باب (عشرة النساء)، وغيرهم.

وفي ذِكْرِ من رواه تأكيدٌ لصحته، والقطع بثبوته، وحسبه أنه متفق عليه، فقد رواه كثير من الحفاظ من أصحاب السنن والصحاح.

ثالثاً:الكتب التي شرحت حديث أم زرع:

حظي "حديث أم زرع" باهتمام العلماء، وعنايتهم الفائقة به، يتجلى ذلك من خلال ما خُصَّ به من الشروح والتأليف، والتعليقات عليه قديماً وحديثاً، ومن خلال النظر في تلك المؤلفات ـ على تعددها ـ نستطيع أن نرجعها إلى ثلاثة أقسام، على النحو التالي:

١ـ **شُرَّاح "حديث أم زرع"**، فقد روى الحديثَ - كما تقدم -كثير من الحفاظ من أصحاب الصحاح والسنن، وقد حظيت مؤلفاتهم بتوافر كثير من العلماء عليها بالشرح والتعليق، ولشرَّاح الحديث النصيب الوافر في تناول هذا الحديث، وشرحه وبيانه، ومن أبرز هذه المؤلفات:

أ ـ فتح الباري، فنظراً إلى تأخر وفاة مؤلفه الإمام الحافظ ابن حجر (ت٨٥٢ هـ)؛ فقد بسط القول في شرحه للحديث، وبيانه، وذكر ما تضمنه من الفوائد، كما أفاد ـ كذلك ـ من الشروح والمؤلفات التي تناولت هذا الحديث، وقد صرح بذلك في شرحه، فذكر أنه اطلع على ما ذكره العلماء في شرح هذا الحديث، ومن ثم لخصه وضمَّنه شرحه. (١)

ب ـ إرشاد الساري في شرح صحيح البخاري، للإمام شهاب الدين أحمد بن محمد القسطلاني (ت ٨٥٢ هـ)، فلمؤلفه إشارات مهمة، وإضافات رائعة في شرحه لهذا الحديث.

ج ـ شرح الإمام النووي (ت٦٧٦ هـ) لصحيح مسلم، وغيره من العلماء الذين توافروا على شرح صحيح الإمامسلم، ومن أبرزهم: القاضي عياض (ت٥٤٤ هـ)، المسمى: "إِكْمَال المُعْلِم بفوائد مسلم"، وكذلك الإمام: محمد بن محمد السنوسي، فيشرحه "مُكَمِّل إِكْمَال الإكمال"، وكذلك: كتاب "فتح المنعم في شرح صحيح مسلم" للدكتور: موسى شاهين لاشين، وغيرهم.

٢ ـ **كتب غريب الحديث**، ومن أهمها ما يلي:

أ ـ غريب الحديث لأبي عبيد القاسم بن سلام الهروي (ت ٢٢٤ هـ)، تحقيق الدكتور: حسين محمد محمد شرف، ومراجعة الأستاذ: محمد عبدالغني حسن.

ب ـ الفائق في غريب الحديث، للعلامة جار الله محمود الزمخشري (ت٥٨٣هـ)، وسبب اقتصاري على هذين الكتابين من بين كتب غريب الحديث: أنهما تناولا هذا الحديث بالشرح كاملاً دون تقطيعه وتفرقته على حسب مفردات الحديث، فقد ذكر أبو عبيد بن سلام الحديث كاملاً ثم أخذ في شرح مفرداته كلمة

كلمة، مُدَعِّما قوله بالقرآن الكريم، وبالشعر العربي حتى استوفى الحديث حقه من الشرح والإيضاح، وكذلك فعل الزمخشري، فحين وصل إلى مادة (غثث) - وهي لفظة في كلام المرأة الأولى- ذكر الحديث بتمامه، ومن ثم أخذ في شرحه، وبيانه كاملاً، منطلقاً في شرحه ـ كذلك ـ من لغة العرب شعراً ونثراً، ومن القرآن الكريم .

٣ ـ الكتب التي أُلفت ابتداء في شرح حديث أم زرع، وكانت مقصورة عليه، ومن أشهر هذه الكتب:

أـ كتاب: "بغية الرائد فيما في حديث أم زرع من الفوائد"، للقاضي عياض، (ت٥٤٤ هـ)، وهو من قام بشرح صحيح مسلم، وقد تقدم ذكره، ويعد هذا الكتاب من أفضل الكتب التي شرحت هذا الحديث، وأكثرها جمعا وأوسعها، وقد أشار إلى قيمة هذا الكتاب ومنزلته ابن حجر(ت ٨٥٢ هـ) في شرحه لحديث أم زرع، كما ذكر إفادته منه .[٢]

ب ـ كتاب : "غاية النفع في شرح حديث أم زرع "، لجلال الدين السيوطي (ت ٩١١هـ).

ج ـ كتاب : "درة الضرع لحديث أم زرع"، لمحمد بن عبدالكريم بن الفضل الرافعي للقزويني (ت ٥٨٠هـ).

د. كتاب: "شرح حديث أم زرع" لأبي عبدالله محمد بن أبي الفتح بن أبي الفضل البعلي الحنبلي (ت ٧٠٩هـ). وغيرها.

بيد أن جلَّ هذه الكتب أو كلها مختص بشرح الحديث شرحاً لغوياً، ببيان غريبه، وذكر ما تضمنه من الأحكام الشرعية، وبيان الفوائد والآداب المستنبطة منه، وقل أن تجد فيها حديثاً عن المسائل البلاغية، والنكت البيانية التي تضمنها الحديث،

ويستثنى من ذلك كتاب "بغية الرائد فيما في حديث أم زرع من الفوائد" للقاضي عياض (ت٥٤٤ هـ)، فقد ختم كتابه بحديث عن بلاغة الحديث وفصاحته، وقد أجاد في ذلك، وإن كان فيه شيء من العموم والإيجاز، إلا أنه رائد في ذلك، وقد أفاد منه من جاء بعده.

رابعاً: الحديث بين رفعه إلى النبيﷺ، ووقفه على عائشة:

ومن الأمور المهمة المتعلقة بحديث أم زرع التي يحسن ذكرها في صدر هذه الدراسة، وبيانها: الإشارة إلى أن هذا الحديث من قول عائشة ـ رضي الله عنها ـ وليس من قول الرسول ﷺ، وقد أشار إلى هذه القضية، وبينها القاضي عياض (ت٥٤٤ هـ)، يقول: ((اختُلف في سند هذا الحديث ورفعه، مع أنه لا خلاف في صحته، وأن الأئمة قد قبلوه، وخرَّجه في الصحاح البخاري ومسلم، فمن بعدهما)).[٣]

والقول الفصل في هذه المسألة، والرأي الصائب الصحيح أن الحديث كله من قول عائشة ـ رضي الله عنها ـ وأما المرفوع إلى النبيﷺ فهوقوله في آخر الحديث (كُنْتُ لَكِ كَأَبِي زَرْعٍ لِأُمِّ زَرْعٍ)، وقد أكد هذه القضية وقررها كثير من الحفاظ، كما خص هذه المسالةَ كثير من الحفاظ والمدققين، فتناولوها بالبسط، والدراسة، ومن أبرز من تناول ذلك القاضي عياض في كتابه "بغية الرائد فيما في حديث أم زرع من الفوائد"، فقد حقق هذه المسألة وقررها[٤]، وكذلك ابن حجر(ت٨٥٢ هـ) في "فتح الباري"، وقد ختم تلك الدراسة بالنتيجة التي توصل إليها، وذلك في قوله: ((قلت: المرفوع منه في الصحيحين (كُنْتُ لَكِ كَأَبِي زَرْعٍ لِأُمِّ زَرْعٍ)، وباقيه من قول عائشة)).[٥]

وأما مَن يرى أن هذا الحديث مرفوع إلى النبيﷺ، وأنه من قوله، قالـه ابتـداء لعائشة؛ فيذكرون لهذا الحديث مناسبة، بل عدة مناسبات، ولا أرى لذكرها هنا فائدة؛ لكون هذا القـول مرجوحـاً، كمـا أن بعـض تلـك المناسـبات لا تثبـت، ولم تُـذكر في الصحيحين، وبعضها مروي عن الهيثم بن عدي، وهو متكلم فيه - كمـا يـذكر ذلـك القاضي عياض[6] - ؛ لكونه يروي المناكير، ولذا ضعَّفه كثير من الأئمة وعلى رأسـهم الإمام البخاري(ت ٢٥٦هـ)، ويحيى بن معين (ت ٢٣٣هـ) .[7]

المبحث الثاني

الأسرار البلاغية في حديث أم زرع

يبدأ الحديث بقول عائشة ـ رضي الله عنها ـ: (جَلَسَ إِحْدَى عَشْرَةَ امْرَأَةً فَتَعَاهَدْنَ وَتَعَاقَدْنَ أَنْ لَا يَكْتُمْنَ مِنْ أَخْبَارِ أَزْوَاجِهِنَّ شَيْئًا) ويعد هذا القول منها توطئة لحديث الزوجات الإحدى عشرة عن أزواجهن، وأول ما يستوقفنا في هذا الحديث قولها (فَتَعَاهَدْنَ وَتَعَاقَدْنَ)، وقد تضمنت هذه الجملة الإشارة إلى القطع الجازم الصادق الذي قطعته كل واحدة منهمن على نفسها أن تقول الصدق عن زوجها، وألا تخفي من أمره شيئاً، يدل على ذلك دلالة هاتين اللفظتين لغوياً، ففي العهد: الوثوق، واليمين، والاشتراط بالشيء، ومن ثم الاحتفاظ به، والاحتفاء كذلك،[٨]، ففي لفظة (فتعاهدن) دلالة على العهد الوثيق، الذي أُخذ على كل واحدة أن تقوله في زوجها، دون أن تكتم من أخباره شيئاً.

وثمة لفظة أخرى لها دلالتها وإيحاؤها في هذا السياق، وهي قولها (وَتَعَاقَدْنَ)، وأصل هذه المادةـ كما يذكر ابن فارس (ت٣٩٠ هـ) ـ[٩]تدل على شدٍّ، وشِدَّةِ وثوق، ففيها مزيد تأكيد، ومزيد عقد على ما اتفقن عليه، ومن هنا جاء ذكرها في هذا السياق؛ إشارة إلى هذا المعنى وتأكيداً، وإلاَّ فإن في اللفظة الأولى دلالة عليها، وغنية عنها، وذلك أن في العهد إشارة إلى العقد، يدل على ذلك ـ أيضاً ـ قول ابن فارس: «وعاقدته مثل عاهدته».[١٠]

ولا يخفى ما تضمنته هذه الجملة من تقديم وتأخير، فقد تقدم الجار والمجرور (مِنْ أَخْبَارِ أَزْوَاجِهِنَّ) على المفعول (شَيْئًا)، وفي هذا التقديم عناية بأمر المقدَّم، واهتمام به، فسينصب حديث النسوة على أخبار أزواجهن، ولذا لن يتركن من

أخبـارهم صـغيراً ولا كـبيراً، وفي هـذا التقـديم إشـارة إلى فـضول أولئـك النـسوة، وحرصهن على معرفة أخبار كل واحدة منهن مع زوجها، مع أن هـذه الأمـور مبنيـة على الستر والخفاء؛ وذلك أن هذا من أسرار البيوت التي ينبغي ألاَّ تخرج عـن أسـوار البيت، وأن تظل سراً بين المرء وزوجه.

وفي تنكير لفظة (شَيْئًا) إشارة إلى هذا المعنى، وتأكيد عليه، فقـد أفـاد التـنكير التقليل، ولذا فستذكر كل واحدة منهن كل شيء عن زوجها، صـغيراً كـان أو كـبيراً، حقيراً كان أو عظيماً، مدحاً كان أو ذماً.

بدأت الأولى قائلة: (زَوْجِي لَحْمُ جَمَلٍ غَـثٌّ عَلَـى رَأْسِ جَبَـلٍ لَـا سَـهْلٍ فَيُرْتَقَى وَلَا سَمِينٍ فَيُنْتَقَلُ)، واللحم الغث: هو الهزيل الـذي يُـستغث مـن هزالـه، أي يُترك، ويُزهد فيه[11] ، والمعنى الذي تريد أن تصل

إليه من خلال هذا الوصف أن تبين أن زوجها بعيد المنال، يـصعب التعامـل معه، فلا هو يسهل ويلين فتصل الزوجة إلى قلبه، وتتمكن منه، ومن ثَـم تعمـل علـى مرضاته؛ ابتغاء خيره ولو قل، وهو مع ذلك لا خير فيه مـن أجـل أن يُطمـع فيـه، أو يُسعى إليه، بل لا تصل إليه إلا بمشقة، وبشق الأنفس، وليس فيه ما يحفز إلى الوصول إليه، والبقاء معه.[12]

وقد عبَّرتْ المرأة عن هذا المعنى أتم بيان، وبأبلغ لفظـة، وأصـدق عبـارة مـن خلال ما تضمنه كلامها من أساليب بلاغية، تـوافرت جميعهـا وتـضافرت فيمـا بينهـا لإظهار هذا المعنى وإبرازه.

وقــد أشــار القاضــي عيــاض(ت٥٤٤ هــ) إلى مــا تــضمنه كلامهــا مــن فصيحالكلام، ورشيق العبارة في قوله: ((واعْتَبِرْ كلام الأولى؛ فإنه مع صـدق تـشبيهه،

وصقالة جوهره، قد جمع من حسن الكلام أنواعاً، وكشف عن محيا البلاغة قناعاً، وقرن بين جزالة الألفاظ، وحلاوة البديع، وضمَّ تفاويق المناسبة، والمقابلة، والمطابقة، والمجانسة، والترتيب، والترصيع»[١٣] ، وسأبين ـ إن شاء الله ـ ما تضمنه كلامها من أساليب بلاغية، ونكت بيانية.

وأول ما يستوقفنا في حديثها التشبيه الذي ضمَّنته كلامها في وصف زوجها، وفي بيان حالها معه، ومن بلاغة هذه المرأة وفصاحتها أن استفتحت كلامها بأسلوب التشبيه، فشبهت شراسة خلقه وكِبره بلحم جمل غث، ومرادها من هذا التشبيه: أن تصفه بالبخل، وقلة الخير، وببعده عن الناس، فلا ينال أحد خيره، مع قلته، وشدة ضرره، فهوتماماً كاللحم الهزيل الذي يزهد فيه الناس، ولا يرغبونه. [١٤]

وحتى يعطي هذا التشبيه ثمرته المرجوة منه ذكرت أنه لحم جمل دون سواه من أنواع اللحوم، وفي تخصيصه بلحم الجمل كثير من الدلالات والإشارات التي تريد وصف زوجها به، لِما تميز به لحم الجمل عن سائر أنواع اللحوم.

ولذا فإن لاختيار هذه اللفظة وإيثارها في هذا السياق دلالتها المرادة في بيان وصف زوجها، وحالها معه، فإن للحم الجمل شأناً غير سائر أنواع اللحوم، وفيه من العيوب ماليس في سواه، فلا ترى «أخبث غثاثة بين الأنعام من الجمل؛ لأنه يجمع خبث الريح، وخبث الطعم، حتى ضُرب به المثل». [١٥]

وزادت التشبيه قبحاً وسوءاً بقولها (غث) فأضافت إليه مزيداً من التقبيح والتشنيع؛ وذلك أن هذه اللفظة «مأخوذة من قولهم: غث الجرح غثاً وغثيثاً إذا سال منه القيح، واستغثه صاحبه». [١٦]

ويصح أن يكون قولها (زَوْجِي لَحْمُ جَمَلٍ غَثٍّ) كناية عن صفة، أي أنه قليل الخير، قليل البركة، فهو كاللحم الهزيل الذي يُزهد فيه، ويستغنى عنه.[١٧]

ومن متمات هذا التشبيه قولها (عَلَى رَأْسِ جَبَلٍ وعر[١٨]) فقد شبهتبخله وقلة خيره بالجبل الوعر، وقد دلت بهذا التشبيه على سوء خلقه، فهو يتكبر على الناس، ويسمو بنفسه، ويضعها فوق موضعها، وفي نعتها للجبل بلفظة (وعر) كثير من الدلالات والإشارات المهمة في هذا التشبيه، فالجبال بطبيعتها معروفة بالصلابة والوعورة، فذا طبعها، وهذه صفتها، بيد أن ذكرها والتنصيص عليها بيان لحال هذا الزوج، وأنه بلغ الغاية من الصلابة والقسوة، والنهاية في الصلف والكبرياء، ففي ذكر هذه الصفة تأكيد لها، وبيان مدى تغلغلها في قلب زوجها.

ونوع التشبيه في كلامها من التشبيه التمثيلي، والمراد به: تشبيه صورة متكاملة بصورة متكاملة أخرى، كما أن وجه الشبه فيه ليس شيئاً واحداً، وإنما هو ـ أيضاً ـ صورة منتزعة من أمور كثيرة، وذلك كقوله تعالى ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًاۢ ﴾ {الجمعة: ٥} ، ذلك: أنها شبهت سوء خلق زوجها، مع قلة خيره، وشدة بخله، وترفعه عن الناس، وتكبره عليهم، وبعده عنهم؛ لكي لا ينالهم خيره مع قلته، فشبهتهذا كله باللحم الهزيل النتن الذي خبث طعمه وريحه، وهو مع ذلك في مرتقى شاهق، صعب وعر، يشق الوصول إليه، ولذلك فلا يرغب أحد في طلبه، والذهاب إليه؛ ليتناوله، أو ينقله إليه، فإذا كان هذا حاله، وتلك أوصافه ((فلن تطمح إليه همة طالب، ولا امتدت نحوه أمنية راغب)).[١٩]

ومن هنا تتجلى بلاغة التشبيه، ويتجلى أثره في إيضاح مرادها وبيانه، ولذا فقد أضفى هذا الأسلوب على كلامها رونقاً وبهاء، يتضح ذلك لو خلا التشبيه من

كلامها، وقيل: « زوجي بخيل لا يوصل إلى شيء مما عنده، ... ووجه بلاغة التشبيه مافيه من الجلاء والإيضاح، وتأمل بون ما بين الموضعين من البيان، وفرق ما بين الكلام في الإيضاح، وإن كان الغرض واحداً، والموضوع سواء». [٢٠]

وقد تضمن كلامها أيضاً الإيغال – وهو طريق من طرق الإطناب – وذلك في قولها (وعر) و (غث)، ويتضح المراد بذلك من خلال بيان المراد بالإيغال، فقد سُمي بذلك؛ لأن المتكلم أو الشاعر أوغل في الفكرة حتى قاده ذلك إلى استخراج سجعة أو قافية، يفيد بها معنى زائداً على المعنى السابق[٢١]، وفي دلالتها اللغوية إشارة إلى المراد بها: فأوغل فلان في الشيء إذا دخل فيه وتوارى، وذلك إذا ذهب فيه وأبعد. [٢٢]

ومن هذه المعاني اللغوية جاء تعريفه عند البلاغيين، فعرفوه بأنه "ختم البيت بما يفيد نكتة يتم المعنى بدونها"[٢٣]، ومن أشهر شواهدها قول امرئ القيس[٢٤]:

كأن عيون الوحش حول خبائناوأرحلنا الجزع الذي لم يُثقبِ

فقد أتم الشاعر التشبيه واستوفاه كاملاً قبل القافية من خلال تشبيه عيون الوحش بالجزع، ولكن لما جاء بالقافية وهي قوله (لم يثقب) فقد أوغل بها في الوصف، وزاده تأكيداً؛ وذلك أن عيون الوحش غير مثقبة، وهي بالجزع الذي لم يثقب أدخل في التشبيه. [٢٥]

ولا يفوتني أن أشير هنا إلى أن الإيغال ليس خاصاً بالشعر، فهو يأتي في الشعر والنثر معاً، وإن كان وروده في الشعر أكثر، يدل على هذا الاشتراك التعريف اللغوي السابق للإيغال، وكذلك فعل بعض البلاغيين، فقد أورد شواهد لهذا الأسلوب من القرآن الكريم، كما فعل ذلك ابن أبي الإصبع (ت٦٥٤هـ). [٢٦]

ومن خلال ما تقدم يتضح الإيغال في كلام المرأة في وصفها زوجها، وذلك في قولها (زَوْجِي لَحْمُ جَمَلٍ غَثٍّ) وذلك أن المعنى يتم عند قولها (زَوْجِي لَحْمُ جَمَلٍ)، ولكنها أوغلت في وصفه في بيان أخلاقه فذكرتْ لفظة (غث)، فكان فيها مزيد إيضاح ومبالغة في تقرير سوء خلقه، وهزاله وخبثه، وكذلك في قولها (عَلَى رَأْسِ جَبَلٍ وعر)، فالمعنى يتم عند قولها (عَلَى رَأْسِ جَبَلٍ)، إذ الجبل معروف بصلابته ووعورته، ولكنها لم تقف عند هذا الحد فأوغلت وزادت، وهو وصف زوجها ونعتها له بقولها (وعر)، فدلت على شدة صلابته، وعلى كِبْره وتيهه وشموخه على الناس جميعاً، فحققت مرادها، وشفت غليلها من خلال أسلوب الإيغال، بل وبالغت في القول، وحققت التناهي والغاية في نعته، وبيان أخلاقه.

كما تضمن كلامها – كذلك – أسلوب التتميم، وهو مما يزيد المعنى وضوحاً واكتمالا، وقد ذكره أبو هلال العسكري (ت٣٩٥هـ)، وسمَّاه (التتميم والتكميل)، وبيّنه بقوله: «أن توفي المعنى حظه من الجودة، وتعطيه نصيبه من الصحة، ثم لا تغادر معنى يكون فيه تمامه ألا تُوْردُه، أو لفظاً يكون فيه توكيده إلا تذكره»[٢٧]، ومن خلال هذا المصطلح يتضح معنى التتميم في كلام المرأة، من خلال ما يلي: من قولها أولاً (زَوْجِي لَحْمُ)، فقد يظن ظان أنها تعني مطلق اللحم، فيشمل الضأن وغيره، وهو بأنواعه محمود، ومرغوب فيه، ولكنها طردت هذا المعنى بقولها (جَمَلٍ)، ولا يخفى مافي هذا النوع من الغلظة والكزازة، وما يحمله فيطياته من الخبث والثقل؛ لصعوبة طهيه، وخبث طعمه، ثم تممت هذا المعنى بقولها (غَثٍّ)، فلو كان الجمل ضليعاً لكان مقبولاً، وكانت الوطأة أخف، ولكنها نفت هذا الأمر بقولها (غَثٍّ)، فزادته تنفيراً حين أشارت إلى هزاله وضعفه، فكان في ذلك تتميم في بيانها لحاله، وسوء أمره، يدل على ذلك قول العرب: غَثَّ فلان في خُلقه، إذا قبُح وساء[٢٨]، وليت الأمر وقف عند هذا؛ وذلك أن الشيء وإن كان زهيداً رخيصاً فقد يُؤخذ ويُقتنى إذا وُجد بغير نصب ولا مشقة، ولكنها نفت هذا الأمر وقطعته بقولها (عَلَى رَأْسِ جَبَلٍ)، فكان في قولها

هذا تتميم للمعنى السابق، فذكرت أنه على رأس جبل في مكان شاهق، لا تبلغه النفوس إلا بشق الأنفس، وبصعوبة بالغة، وقد يهون على المرء صعود الجبل، والوصول إلى قمته إذا كان الجبل سهل المرتقى، ولكنها نفت هذا الأمر، وطردت هذا الهاجس بقولها (وعر) فأشارت بذلك إلى وعورة المسلك، وصعوبة الطريق، ولم تقف عند هذا، بل زادت الأمر بياناً، والمعنى تتميماً بقولها (لَا سَهْلٍ فَيُرْتَقَى وَلَا سَمِينٍ فَيُنْتَقَلُ)، وفي ذلك تأكيد على سوء طباعه، بل تناهيه في القبح والغلظة، وعلى ترفعه على الناس، وتكبره عليهم، فلا هم يصلون إليه، فينالون خيره، إذ لا خير فيه، ولا هو ينزل إليهم فيصلهم بخيره، ويمدهم بعطائه، وكأنها أرادت بذلك أنه سيظل على هذا الحال،وسيؤول إلى شر مآل؛ بسوء خلقه، وشر طباعه .

ومن الأساليب البلاغية التي تضمنها كلام المرأة: أسلوب المقابلة، وهو أن يُؤتى بمعنيين أو أكثر، ثم يُؤتى بما يقابلها من المعاني، وقد أوردت عدة أوصاف لزوجها، ثم ذكرت ما يقابلها من المعاني، وذلك في قولها (غث، ووعر) ثم ذكرت ما يقابلها في قولها (سهل، وسمين)، فالغث ـ كما تقدم ـ الهزيل الضعيف، وكثر استعماله في العربية في مقابلة السمين[٢٩] ، ويقابل (الوعر) (السهل)، وتتجلى بلاغة هذا الأسلوب: أن المقابلة حيت تذكر الألفاظ وما يقابلها تجعل المعنى يزداد وضوحاً، وفي النفس رسوخاً وثباتاً؛ وذلك أن الكلمة وضدها تثير انتباه السامع، وتوقظ شعوره، بل وتعمِّق إحساسه بالمعنى الذي عُرض بهذه الصورة، فيكون ذلك داعياً إلى تأمله، والوقوف عنده، فيظهر المعنى واضحاً جلياً، ومن ثَم تظهر الحِكم والأسرار من ورود الجمع بين الضدين في مقام واحد، ولذا فتُعد المقابلة مظهراً من مظاهر تلاحم الكلام وترابطه فيما بينه، وكلما كان أفراد الكلام أقوى ارتباطاً، وأشد التحاماً كان أدخل في الفصاحة.[٣٠]

ولهذا فقد بلغت هذه المرأة ـ من خلال أسلوب المقابلة ـ الغاية في وصف

زوجها، وقد أبانته أتم بيان، وأتت على جميع أوصافه من خلال ذكر نعوته وأضدادها، فتم لها المراد، وحققت مقصودها في بيانها لحال زوجها، وحالها معه.

وإلى هنا ينتهي بنا الحديث مع المرأة الأولى، والحديث معها لا ينتهي، ولكن حسبك من القلادة ما أحاط بالعنق، وإلا فإن أسلوبها آية في الفصاحة، وغاية في البيان والبلاغة، كيف لا وقد «جمع بين حسن الكلام أنواعاً، وكشف عن محيا البلاغة قناعاً، وقرن بين جزالة الألفاظ وحلاوة البديع، وضم تفاويق المناسبة والمقابلة» . (٣١)

(قَالَتْ الثَّانِيَةُ زَوْجِي لَا أَبُثُّ خَبَرَهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ لَا أَذَرَهُ إِنْ أَذْكُرْهُ أَذْكُرْ عُجَرَهُ وَبُجَرَهُ) وقد آثرتْ هذه المرأة الصمت، وعدم البيان، فقد تركت الحديث عن زوجها بأسلوب لبق، دافعها في ذلك ما تعرفه من أخلاق زوجها، إذ يدل كلامها على أنه مستور الظاهر، رديء الباطن، ولكنها تعللت بذلك القول، إذ لم «ترد هتك ستره، وإنها إن تكلمت بما قد عاقدت عليه صواحبها كشفت من قبائحه ما استتر، وأبدت من سوء حالها، وعظيم همها به ما قبل لم يظهر، ولكنها لوَّحتْ وما صرحت، وأجملت وما شرحت، فقد قالت، وإن قالت: لا أبث؛ إذ لا بد للمصدور أن ينفث...ولكن هذه اكتفت بالإيماء والإجمال في الخبر عنه، ولم تهتك حجاب الصون عن عورات ما عرفت منه» . (٣٢)

إذن فقد تركت هذه المرأة الإخبار عن زوجها، وأمسكت عنه بحجة أنها تخاف ألاَّ تذره، وفي تصدير كلامها بـ(إنَّ) المؤكدة تأكيد لهذه الحقيقة، وترسيخ لها، فهي إن تكلمت فلن تترك شاردة ولا واردة إلا ذكرتها، وضمَّنته حديثها، ولذا فإن توكيد كلامها بـ(إنَّ) في هذا السياق إشارة مهمة، ودلالة واضحة على أنها إن تكلمت فستتكلم بأمر عظيم، يبدأ ولا ينتهي، ولذا فقد آثرت الصمت، بل صرحت به في قولها (إن أذكره أذكر عجره وبجره).

وقولها (عُجَرَهُ وَبُجَرَهُ) كناية عن عيوبه الظاهرة والباطنة؛ وذلك أن العجر والبجر: كناية عن أموره كلها باديها وخافيها، خيرها وشرها، يدل على هذه الكناية معنى هاتين الكلمتين (العجر والبجر)، فالعجر: نفخة ناتئة تكون في الظهر، تنشأ من تقعد العصب والعروق، وإن كانت في السرة فهي بجر[٣٣]، ومن ثم استُعْملتا في الأحزان والهموم، وقيل: في المعايب والنقائص، وقيل: فيما يكتمه المرء ويخفيه عن غيره[٣٤]، ولا تعارض بين هذه الأقوال؛ فالمرء لا يكتم من الأخبار، ويخفيه عن الناس إلا إذا كان سيئاً، يجلب له الهموم والأحزان، ولا يكون ذلك إلا من العيوب والنقائص.

وإن تعجب من كلام هذه المرأة فاعجب من حسن منطقها، ومن حسن تخلصها من الحديث عن زوجها دون الإخلال بما عاقدت عليه النساء، وعاهدت ألا تكتم من خبر زوجها شيئاً، وكان سبيلها في ذلك الإيماء والإشارة إلى حال الزوج دون التصريح، وفي هذا دلالة على سمو هذا الأسلوب، وقد ذكره البلاغيون فأشادوا به وأشاروا إلى علو كعبه، ومن ذلك قول ابن رشيق القيرواني (ت٤٥٦هـ):((والإشارة من غرائب الشعر وملاحه، وبلاغته عجيبة تدل على بعد المرمى، وفرط المقدرة، وليس يأتي بها إلا الشاعر المبرِّز، والحاذق الماهر، وهي في كل نوع من الكلام لمحة دالة، واختصار وتلويح، يعرف مجملاً، ومعناه بعيد من ظاهر لفظه)). [٣٥]

وتعد الإشارة نوعاً من أنواع الكناية، وقد سبق الإشارة إلى ذلك، حين ذكرتُ أن كلام هذه المرأة كناية عن عيوب زوجها الظاهرة والباطنة، كما تُعد ـ كذلك ـ من إيجاز القِصر، فقد حوت ألفاظها القصيرة معاني كثيرة، فقد أشارت بقولها (عُجَرَهُ وَبُجَرَهُ) إلى عيوبه كلها ظاهرها وباطنها، خافيها وباديها، صغيرها وكبيرها، وأنى لنا أن نحصر ذلك في عبارة؟ وأي جملة أو جمل تحيط بذلك كله؟، وقد

أشار قدامة بن جعفر(ت ٣٧٧هـ) إلى تضمن أسلوب الإشارة على إيجاز القصر، يقول: «هو أن يكون اللفظ القليل مشتملاً على معانٍ كثيرة، بإيماء إليها، أو لمحة تدل عليها، كما قال بعضهم: وقد وصف البلاغة، فقال: هي لمحة دالة» .[٣٦]

(قَالَتْ الثَّالِثَةُ زَوْجِي الْعَشَنَّقُ إِنْ أَنْطِقْ أُطَلَّقْ وَإِنْ أَسْكُتْ أُعَلَّقْ)، أول ما يستوقفنا في كلامها وصفها لزوجها بأنه (الْعَشَنَّقُ)، وقد ضمَّنتْ هذا الوصف كثيراً من الدلالات والإشارات التي تدل على سوء خَلْق زوجها وخُلُقه؛ وذلك أن الْعَشَنَّقُ هو الرجل المفرط في الطول، وهذه الصفة دليل حمق وسفه[٣٧]، يدل على حمقه وسفهه فعل هذا الزوج مع زوجته، وقد ذكرت طرفاً من أخباره، وشيئاً من أحوالها معه، ولو استرسلت لرأينا العجب العجاب من حمقه وسفاهته.

وقد أفاد تعريف لفظة (الْعَشَنَّقُ) بالألف واللام الإشارة إلى أنه بلغ حد التناهي في الطول المفرط، ووصل إلى غايته التي لا مزيد عليها، بل وصار معروفاً به مشهوراً، لا صفة له غيرها، لذا فهو يُنعت بها، ويُعرف من خلالها، وقد أشار الزمخشري(ت٥٨٣هـ)، في "الفائق" إلى هذه اللطيفة، يقول: «وفي لام التعريف إشعار بأنه هو في كونه عشنقاً». [٣٨]

ولذا فثمة فرق في الدلالة بين قولها (زَوْجِيالْعَشَنَّقُ) و(زوجي عشنق)، يلحظ هذا الفرق البصير بفروق الأساليب، الخبير بخصائصها التعبيرية وسماتها، ففي الألف واللام إشارة إلى معنى الكمال في هذه الصفة، والتناهي فيها، وأنه بلغغايتها، وهو أسلوب معروف ومعهود في لغة العرب، ومن ذلك قولهم: هو الرجل، أي الكامل في الرجولة، الجامع للصفات المرضية، فقد بلغ في الرجولة مبلغها، وأتى بها على أكملها، ومن ذلك قوله ـ تعالى ـ﴿ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِ...﴾{البقرة: ٢}، فهو الكتاب الكامل الجدير بأن يُخص بكل شرف وفضيلة؛ لِما أودع الله فيه، وخصه

من بين سائر الكتب، فقد حاز أصول المحامد كلها، وبلغ غايتها، وتربع على قمتها.[٣٩]

ثم قالت بعد ذلك (إِنْ أَنْطِقْ أُطَلَّقْ وَإِنْ أَسْكُتْ أُعَلَّقْ)، وقد استفتحت كلامها بأداة الشرط (إن) وفي استخدام هذه الأداة دون الأداة الأخرى (إذا) إشارة بالغة تريد ذكرها، والتأكيد عليها، فنحن نعلم أن ثمة فروقاً بين هاتين الأداتين، فهما وإن كانتا تفيدان الشرط إلا أن لكل واحدة منهما مقامات وسياقات تتطلبها دون الأخرى؛ وذلك أن (إن) تأتي في الأمور المشكوك في وقوعها، المحتمل حدوثها، بخلاف (إذا)، فهي تأتي في الأمور المتيقن وقوعها، المحتم حصولها، ومن الشواهد على ذلك قوله ـ تعالى ـ﴿ وَإِذَآ أَذَقۡنَا ٱلنَّاسَ رَحۡمَةً فَرِحُواْ بِهَا وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ إِذَا هُمۡ يَقۡنَطُونَ ﴾ {الروم:١} ، فجاءت (إذا) مع رحمة الله؛ لأنها واسعة كثيرة، ومتيقن حدوثها، ومقطوع بحصولها، فقد وسعت رحمته كل شيء، وما من أحد إلا وقد أصابته هذه الرحمة وشملته، وجاءت أداة الشرط (إنْ) مع إصابة الناس بالسيئة، وفي ذلك إشارة إلى أنه ـ سبحانه ـ لا يصيب الناسَ بالشر كثيراً، فهيقليلة، ومن هنا ناسب أن يأتي بأداة الشرط (إنْ)؛ إشارة إلى هذا المعنى، ودلالة عليه.

ولذا فإن استخدام المرأة لأداة الشرط (إن) في هذا السياق نكتة بليغة تريد الإشارة إليها؛ وذلك أنها لو استخدمت (إذا) لعلمنا نحن، بل ولعلمت هي قبلنا مصيرها وجزاءها بسبب كلامها، ولكانت العاقبة واضحة، والجزاء معلوماً، فستعاقب بكلامها بالطلاق، ولكن الأدهى والأمر أنها لا تعرف مصيرها معه، وتجهل كذلك عاقبة كلامها معه، ولذا فهي تعيش معه في قلق دائم، وحيرة مستمرة، تحيط بها، تلازمها في حركاتها وسكناتها، وفي صمتها وفي كلامها لا تنفك عنها أبداً .

وفي قولها (إِنْ أَنْطِقْ أُطَلَّقْ وَإِنْ أَسْكُتْ أُعَلَّقْ) محسن بديعي، وهو المقابلة، فقد قابلت بين (أنطق، وأسكت)، وبين (أطلق، وأعلق)، وتكمن بلاغة هذا الأسلوب أنه أحاط بجميع حالات هذه المرأة، وحصر جميع أحوالها مع زوجها، فهي لا تخرج عن هذه الأحوال، فهي بين نطق وسكوت، ولكن ثمة جزاء ينتظرها على نطقها، وعقاباً آخر مترتباً على سكوتها، ولذا فهي لا تعرف ماذا تفعل، ولا تعرف كيف تعيش معه وتستمر، ومن بلاغة هذه المقابلة - أيضاً - الإشارة إلى أنها استخدمت مع هذه الزوج جميع الأساليب، وكانت معه - كذلك - على جميع الحالات، ولكن لا خلاص منه ولا انفكاك، ولذا فهي تخبر هؤلاء النسوة أنها مع زوجها بين «نارين، إن نطقتُ بكلمة أطلب فيها حقي ضربني وطلقني، وأن أسكتْ عن حقوقي وعلى إهانته واحتقاره لي أكون كالمعلقة، لا هي زوجة، ولا هي مطلقة». (٤٠)

وفي قولها (أُعَلَّقْ) تعبير دقيق عن الحالة التي تعيشها مع زوجها، وحياتها معه، فهي تعيش معه بلا أمن ولا استقرار، كما أنها لا تأمن أذاه وشره، فهي خائفة وجلة مضطربة قلقة، وأنى لها أن تأمن أمره، وهذا حالها معه، كما بينتها من خلال هذا الأسلوب الجزل البليغ (إِنْ أَنْطِقْ أُطَلَّقْ وَإِنْ أَسْكُتْ أُعَلَّقْ)، ولذا فإن قولها هذا من الشكاية البليغة المعبرة عن حال زوجها، وعن حال حياتها معه، وخوفها منه، تترقب أذاه وشره في كل لحظة وحين.

وفي بناء فعلي (أُطَلَّقْ، أُعَلَّقْ) للمجهول إشارة مهمة في هذا السياق، فقد جاء الفعلان بهذه الطريقة ليزيدا من مخاوفها، ويضاعفا من أحزانها، ولذا فهي تترقب الطلاق والتعليق منه في كل حين، وفي كل آن، كما أنها تترقب حدوث ذلك منه، ومن غيره، فقد يفعل زوجها ذلك، ويرسل لها من يخبرها بذلك، وفي ذلك زيادة في قلقها، وزيادة في افتضاح أمرها، واشتهار خبرها بين الناس.

وقد صورت هذه الحالة أتم تصوير وأبلغها في قولها في الرواية الأخرى (وهو على حد السنان المُذَلَّق) (٤١) ، أي طرف الرمح المحدد، وهو رأسه وأعلاه، وهو أشد ما فيه وأقواه (٤٢)، وفي هذا التشبيه إشارة إلى شدة خوفها منه، وعدم استقرارها معه، وترقبها الأذى منه في كل لحظة وحين، ولذا فهي لا تعرف الأمن ولا الأمان؛ وذلك أنها «إن جاءت على السنان سقطت فهلكت، وأن استمرت عليه أهلكها»(٤٣) ، وتكمن بلاغة التشبيه في هذا السياق أن فيه بياناً لحالتها، وإيضاحاً لها، فقد صورت حياتها مع هذا الزوج ـ من خلال أسلوب التشبيه ـ أتم تصوير، ورسمته في أجلى صورة وأوضحها، بل نقلت لنا ـ من خلال هذا التشبيه ـ حالتها من المعقول إلى المحسوس، وصورته لنا أتم تصوير، ولك أن تمعن النظر - تأملاً وتدبراً - بحال من يكون على حد السنان المذلق، كيف يكون حاله؟ وكيف تكون مشاعره؟ وكيف يكون أمنه وأمانه؟ وكيف يكون توقعه لمصيره وهو يعرف الخطر المحدق به؟ والهلاك المحتوم الذي يترقبه وينتظره؟ والعرب تقول لمن يكونعلى حذر وخوف وغير ثبات كأنه على مثل سن الرمح، وعلى مثل حد السيف(٤٤) ، وكذلك حال هذه الزوجة مع زوجها، فهي لا تأمن شره ولا أذاه، فهي على حذر من صحبته، ولا تعلم ما مدى بقائها معه، غير مطمئنة ولا مستقرة، متوقعة أذاه وفراقه في كل لحظة وحين، فهي معه كمن هو على حد السنان، وحسبك بهذا التشبيه بلاغة وتعبيراً عن حياتها والحالة التي تعيشها مع زوجها.

وما أقسى أن يكون الزواج خوفاً وقلقاً، وهَمًّا وهلعاً، وهو في أصله رحمة وسكن، وما أتعس حياة هذه المرأة وحالها وهي تعيش مع زوج هذا خلقه، وذلك موقفه من زوجه، ونظرته لها.

(قَالَتْ الرَّابِعَةُ زَوْجِي كَلَيْلِ تِهَامَةَ لَا حَرٌّ وَلَا قُرٌّ وَلَا مَخَافَةَ وَلَا سَآمَةَ) تقصد

بذلك أن تخبر عن زوجها أنه لين الجانب، خفيف الوطأة على الصاحب، مبينة أنه حسن الصحبة، جميل العشرة، لا يصدر منه الأذى، ويأمن غيره جانبه فيسلم من شره وأذاه، بل لا تعرف معه السآمة والملل.(٤٥)

فهذا مرادها، وذاك مقصدها، بيد أنها لم ترد أن تذكر هذا المعنى مجرداً من حلية بيانية يرفل بها ويتوشح، ولذا ألبستْ كلامها ثوباً براقاً قشيباً من خلال أسلوب التشبيه، وكأنها من خلال أسلوبها البلاغي تكافئ بذلك زوجها على حسن معاملته، وكريم خلقه، والجزاء من جنس العمل، ولذا لجأت إلى أسلوب التشبيه، فذكرت عن زوجها أنه (كَلَيْلِ تِهَامَةَ)، وتهامة: اسم لكل ما نزل عن نجد من بلاد الحجاز، وهي تساير البحر(٤٦)، وبسبب موقعها الجغرافي صار يُضرب بها المثل في حسن جوها واعتدالها، ولقد ذكرتْ ليل تهامة ووصفته بأنه لا حر ولا قر، كما أنه كذلك لا مخافة منه ولا سآمة، أما كونه لا حر ولا قر؛ فلأن تهامة «بلاد حارة في غالب الزمان، وليس فيها رياح باردة، فإذا كان الليل كان وهج الحر ساكناً، فيطيب الليل لأهلها بالنسبة لما كانوا فيه من أذى حر النهار».(٤٧)

والمرأة بليغة في تشبيهها، دقيقة فيه، ولذا فقد أدى التشبيه غرضها، وحقق مرادها؛ وذلك حين شبهت زوجها بليل تهامة، وليس بتهامة على الإطلاق، فتهامة بلاد حارة، وهذا أمر يُذم ولا يُحمد، ولذا فقد نأت بزوجها عن ذلك، فذكرت أنه كليل تهامة، وليل تهامة كأجمل ما يكون من الاعتدال واللطافة؛ حيث الرياح هادئة، والهواء معتدل؛ وذلك أن برودته تقضي على حر نهاره وسمومه، وتلطفه بنسمات الهواء الباردة العليلة.

هذا ما ذكرته المرأة عن ليل تهامة، ولم يكن ذكرها له مقصوداً لذاته، بل أرادت تشبيه زوجها بهذا الليل، ولذا فإن هذه الصفات ينبغي أن نلحظ وجودها في

زوجها وتمكنها فيه، وهذا هو المقصود من هذا التشبيه، فكما أن ليل تهامة لا حر ولا قر، فكذلك زوجها معتدلة أحواله، جميلة أخلاقه، شمائله أرق من نسمات الليل رقة ولطافة.

وفي لفظتي "حَرٌّ، قُرٌّ" جناس ناقص، كما أن بينهما أيضاً محسناً بديعياً آخر، وهو: الطباق، وهو الجمع بين الشيء وضده، وتكمن بلاغة هذا الأسلوب أن فيه استيفاء لأحوال الزوج كلها، كما أن فيه نفياً كاملاً لجميع العيوب، فهي تبرئ زوجها من أن تكون فيه، فقد نفت عنه العيوب جميعها صغيرها وكبيرها، فقد نفت عنه العيوب التي يكون مصدرها حرارة الزوج، وسرعة غضبه، كما نفت عنه ـ كذلك ـ العيوب والخصال التييكون مصدرها برودة الزوج، وقلة إحساسه وتأثره، ومن هنا تتجلى بلاغة هذا الأسلوب في هذا المقام من خلال توظيفها لهذا المحسن في بيان محاسن زوجها، واستقصائها لتلك المحاسن، والإحاطة بها.

كما أن أهل تهامة لا يخافون بسبب تحصنهم في أماكنهم، وإحاطة الجبال بهم، فكذلك هذه المرأة مع زوجها تعبيش معه في أمن وأمان، فهي تأمن شره وأذاه، كما أنها تأمن على نفسها معه من الآخرين، ولذا فهي تعيش معه حياة آمنة مطمئنة مستقرة، كما أن من يأوي إليه يأمن جانبه، ويأمن من تطاول الآخرين عليه، فهو حامي الديار والذمم، مانع لداره وجاره. (٤٨)

(قَالَتْ الْخَامِسَةُ زَوْجِي إِنْ دَخَلَ فَهِد، وَإِنْ خَرَجَ أَسِدَ وَلَا يَسْأَلُ عَمَّا عَهِدَ)، وقد نعتت هذا المرأة زوجها بأكرم السجايا وأنبلها، فذكرت حاله معها، بل مع الناس جميعاً، وقد تمَّ لها ذلك بأسلوب جزل، تلفَّع بالإيجاز، وتوشح برونق البيان، وفصيح العبارة، ولذا فقد تضمن كلامها ـ على قصره ـ كثيراً من الأساليب البلاغية، والنكت البيانية، يتجلى ذلك في قولها ـ أولاً ـ (إِن دَخَلَ فَهِدَ)، فشبهت زوجها بالفهد، ولا

يخفى أن وجه الشبه بينهما: اشتراكهما في كثير من الصفات، فقد توافر كثير من صفات الفهد في زوجها، ولقد تمَّ لهذه المرأة الإفصاح عن حال زوجها وبيانه أتم بيان من خلال هذا التشبيه.

ومع ذلك فقد ذكر كثير من الشرَّاح أن قولها (زَوْجِي إِذَا دَخَلَ فَهِدَ) يحتمل المدح والذم، ولذا فُيعد قولها هذا من التوجيه، والمراد به: ورود الكلام محتملاً معنيين مختلفين، بأن يكون أحدهما مدحاً، والآخر ذماً، ومعدود هذا الفن من المحسنات البديعية، وقد ذكره السكاكي (ت ٦٢٦هـ) من المحسنات المعنوية، وعرَّفه بقوله: «هو إيراد الكلام محتملاً لوجهين مختلفين كقول من قال للأعور: ليته عينيه سواء». [٤٩]

وتتجلى بلاغة هذا الأسلوب أن فيه إعمالاً للذهن، وكدًّا له؛ لأنه قائم على إمعان النظر، وطول التأمل، وفيه ـ أيضاً ـ تكثيف للمعاني، وتكثير لها؛ لاشتماله على أكثر من معنى، ومن بلاغته ـ أيضاً ـ: أنه ينأى بصاحبه عن اللوم، ويجعله بعيداً عن العقاب والعتاب؛ لأنه لم يذكر الذم صراحة، فيدفع عن نفسه ـ من خلال هذا الأسلوب ـ الأذى والضرر.

وقد تجلت هذه الأغراض كلها في حديث المرأة عن زوجها، ولذا فمن يرى أن قولها هذا مدح لزوجها، يذكر أن الغرض من تشبيهها له بالفهد أن تصفه بالغفلة عند دخوله البيت، وبلين الجانب، وبالتغاضي؛ وذلك أن الفهد موصوف بالحياء، وقلة الشر[٥٠]، كما أنه مشهور ـ كذلك ـ بالقوة وبالكسب، وبه ضُرب المثل، فقيل: أكسب من فهد[٥١]، وهذه كلها نعوت كمال، أضفتها على زوجها من خلال هذا التشبيه، فمرادها من هذا التشبيه: أن تذكر أن زوجها يجلب لهم الكسب، ويحضر لهم الأرزاق والنعم.

وأما من يرى أن قولها (زَوْجِي إِذَا دَخَلَ فَهِدَ) ذم له، فقد نظر إلى الصفات

المعيبة والمذمومة في الفهد، ومن أبرزها: كثرة النوم، وبه ضُرب المثل، فقيل: أنوم من فهد(٥٢) ، والعرب تذم الرجل كثير النوم، كما أنه موصوف ـ كذلك ـ بالشراسة، والاعتداء على الآخرين؛ بسبب قوته وسرعته، ويكون مرادها بذلك: أن تذم زوجها بكثرة النوم، وعدم قيامه بمصالحها، وقضاء أمورها، ومن جهة أخرى بسبب مافيه من القسوة والغلظة في تعامله معها.

بيد أن الصحيح من ذلك أن مرادها بقولها (زَوْجِي إِذَا دَخَلَ فَهِدَ) المدح والثناء عليه، بل هو من أبلغ المدح وأعطره، يدل على ذلك ما يأتي:

أولاً : أن كثيراً من الشُّراح ـ كما يذكر ابن حجر (ت٨٥٢ هـ) (٥٣)ـ شرحوه على المدح، وهؤلاء الشراح هم أقرب الناس إلى اللغة، وأكثرهم فهماً بلغة العرب، ومعرفة بأساليبها، فضلاً عن إلمامهم بالسنة وشروحها.

ثانياً : قولها بعد هذه الجملة (وَإِنْ خَرَجَ أَسِدَ)، فتعد هذه الجملة احتراسا منها، والاحتراس طريق من طرق الإطناب، وهو كما ـ عرَّفه الخطيب القزويني (ت٧٣٩هـ) ـ:((أن يُؤتى في كلام يوهم خلاف المقصود بما يدفعه))(٥٤) ، والمراد به:أن يخشى المتكلم أن يُفهم من كلامه شيئاً غير مراد، أو فهما خاطئاً، فيأتي بكلام آخر يطرد اللبس، ويزيل الفهم الخاطئ، ويبين المراد، ومن ذلك قول طَرَفَة (٥٥) :

فَسَقَى دِيَارَك - غَيْرَ مُفْسِدِها-صَوْبُ الرَّبِيعِ ودِيْمَةٌ تَهْمِي

إذن فقد أرادت من الاحتراس بقولها (وَإِنْ خَرَجَ أَسِدَ) التأكيد على مدح زوجها، والثناء عليه، وذلك من خلال تشبيهها له بالأسد، وكأنها تقول: إن لينه معنا، وتغافله عنا ليس ضعفاً منه، ولا ذلاً فيه، بل هو أسد هصور، وحسبك بالأسد شجاعة وفتكاً، ومن هنا يتجلى الاحتراس في هذه الجملة، فقد دلت على أن

ذلك منه ((سجية كرم، ونزاهة شمائل، ومسامحة في العشرة، لا سجية جبن، وخور في الطبع)). [٥٦]

وفي تشبيهها له بالأسد إشارة إلى شجاعته وإقدامه، فهو مع الناس أسد هصور، يُحسب له ألف حساب؛ لشدة بأسه، ومهابته، وتكمن بلاغة هذا التشبيه في هذا السياق: أنه أوضح مدى قوة زوجها، ومدى الدرجة التي وصل إليها، حين شبهته بالأسد، ومن ذا الذي لا يعلم قوة الأسد، وشدة بطشه؟ فكان في هذا التشبيه تصوير لهذه القوة، وتبيان لها، وإيضاح لها أيما إيضاح.

ولا زال في قول هذه المرأة (زَوْجِي إِذا دَخَلَ فَهِد، وَإِنْ خَرَجَ أَسِدَ) كثير من المسائل البلاغية التي أمكن الاهتداء إليها من خلال إنعام النظر في كلامها، والتأمل فيه.

فقد اشتمل حديثها على إيجاز القِصَر، وذلك في لفظتي (فهد، وأسد)، فقد ضمنت هاتين اللفظتين كثيراً من المعاني التي يتعذر حصرها، والوقوف عليها، فعبرت بهاتين الكلمتين (فهد، وأسد) عن جميع صفات الفهد والأسد التي لو أردنا تعدادها لضاق المقام بنا، ولما أتينا على جميعها، بل لما وجدنا إلى ذلك سبيلاً، ولذلك فقد اختصرت ذلك كله في هاتين الكلمتين، وهل البلاغة إلاَّ الإيجاز؟ وقد أشار القاضي عياض إلى الإيجاز في قولها (فهد، وأسد)، وإلى بلاغته، يقول: ((فجاء في غاية من الإيجاز والاختصار، ونهاية من البلاغة والبيان، أي إذا دخل تغافل وتناوم، وإذا خرج صال، فما استعارت له خلق هذين السبعين في الحالين الملازمين له، المختصين أعربت بذلك عن تخلقه بهما، والتزامه لوصفيهما، وعبرت عن جميع ذلك بكلمة وكلمة،كل واحدة من ثلاث أحرف، حسنة التركيب، مع جمالها في اللفظ، ومناسبتها في الوزن،

وسهولتهما في النطق». [٥٧]

كما تضمن قولها (إِذا دَخَلَ فَهِد، وَإِنْ خَرَجَ أَسِدَ) محسناً بديعياً، وهو المقابلة، فقد قابلت بين (دخل، وخرج)، وبين (فهد، وأسد)،وقد وظفت هذا المحسن أيما توظيف في حديثها عن زوجها، وفي استيفائها لحال زوجها معها، وبيان موقفه منها، وبيان حاله ـ كذلك ـ مع غيرها خارج البيت، وموقفه منهم، فذكرت ـ من خلال هذه المقابلة ـ حاله إذا دخل البيت، وتعامله معها، كما بينت ـ كذلك ـ حاله مع الناس جميعاً خارج المنزل، ومن هنا تتجلى بلاغة هذا الأسلوب في إحاطته بأحوال الزوج كلها.

ثم ختمت حديثها عن زوجها بقولها (وَلَا يَسْأَلُ عَمَّا عَهِدَ)، وذلك كناية منها عن كرم زوجها، وسخاء نفسه، وحسن تعامله، وعدم بخله، ولذا فهو يتعامى أو يتغافل عما لا يرتضيه من أخلاقها، أو من سوء تصرفها في ماله، ولا يحاسبها على النقير والقطمير، ولا يسألها عما ذهب من ماله مما جلبه لهم؛ لسخاوة نفسه وسعة مكسبه، وطيب محتده، وقد عبرت عن هذا كله بقولها (وَلَا يَسْأَلُ عَمَّا عَهِدَ)، فقد مدحته بهذا الأمر، وأثنت عليه خلقه هذا، وهو أمر محمود، ذكره العرب كثيراً في أشعارهم ونثرهم، فما أكثر ما وصفت العرب والكرماء وعلية القوم بالتغافل، وغض الطرف، والحياء في بيوتها وأنديتها، وذلك معلوم ومشهور. [٥٨]

(قَالَتْ السَّادِسَةُ زَوْجِي إِنْ أَكَلَ لَفَّ وَإِنْ شَرِبَ اشْتَفَّ وَإِنْ اضْطَجَعَ الْتَفَّ وَلَا يُولِجُ الْكَفَّ لِيَعْلَمَ الْبَثَّ)، وقد نعتت هذه المرأة زوجها فوصفته بأبشع الخلائق وأوضعها، وذكرت أن فيه كثيراً من المعايب والنقائص، بل جمع العيوب كلها، وقد ظهر سوء خلقه في تعامله معها، فذمته بالبخل، وبالنهم والشره، وبعدم الاهتمام بها، والقيام بشؤونها، وتفقد أحوالها، فذكرت عنه أنه شره أكول، كثير النوم، قليل

الوصال، قصر حياته على الأكل والشرب والنوم، دون الالتفات إليها، والاهتمام بها، ومداعبتها، وتخفيف مابها، وقد تمَّ لها ذلك بأبلغ عبارة، وأحسن وصف، كما عبرت عن ذلك أيضاً بأسلوب أدبي جميل، ينم عن بلاغتها، وعن ذوقها الرفيع، وأدبها الجم، إذ لم تذكر ذلك صراحة، بل كنَّتْ وأشارت إلى ما يُستحى من ذكره، ويستقبح من التصريح به وبيانه.

فذكرت من حاله أنه (إِنْ أَكَلَ لَفَّ وَإِنْ شَرِبَ اشْتَفَّ)، وفي جمعها بين الأكل والشرب محسن بديعي، وهو الطباق، وتقصد من هذا الأسلوب أن تذكر أحواله المتعددة، وتجمعها في سياق واحد؛ ليتضح للآخرين أمره، ويُعرف خبره، من خلال استقصاء جميع أحواله، وذكر كل شؤونه، خصوصاً فيما يتعلق بأكله وشربه، وحاله في بيته مع أهله، ولم يقف الأمر عند هذا،وما اكتفت بذكر أحواله، بل نعتت كل واحدة منهما، وبينت حاله في الأكل، وفي الشرب، ولذا فهو يلف الأكل لفاً، تريد بذلك الإخبار عن شدة شرهه، وقوة نهمته في الطعام، فحين يأكل لا يبقي منه شيئاً، بل يلفه كله، واللف في اللغة: الإكثار مع التخليط[٥٩] ، وتقصد بذلك: ذمه بهذا الأمر، فهو يخلط صنوف الطعام كلها أمامه، ثم يخلطها ـ كذلك ـ في فمه، إشارة إلى شدة نهمته، كما لا يترك لجليسه ومن يأكل معه شيئاً، فهو يلتف على الطعام، ويلفه كله بمفرده، هذا حاله مع الطعام، وما حاله مع الشراب عنه ببعيد، وذلك أنه (إِنْ شَرِبَ اشْتَفَّ)، وفيإخبارها عن شربه بهذا الأسلوب دليل قاطع بحسن منطقها، وعلو كعبها في البلاغة، فقد بينت حاله في الشراب بأقصر عبارة في قولها (اشْتَفَّ)، ولكنها ضمَّنت هذه اللفظة كثيراً من المعاني والدلالات، تقصد بذلك أنه يشرب ما في الإناء كله، ولا يبقي فيه بقية، فهذا دأبه، وذلك ديدنه في الشرب، فهو« لا يكتفي بالري، وإطفاء غلة ظمئه، بل يستوعب جميع ما في الإناء يتجرعه، وإن كان لا يسيغه، فقد ألف ذلك وإن لم يكن له حاجة في شراب». [٦٠]

وقد صورت هذا المعنى أتم تصوير بقولها (اشْـتَفَّ)؛ وذلـك أن الاشـتفاف في الشراب: يعني استقصاء كل ما في الإناء، وشربه كله، مأخوذ من الشفافة، والمـراد بـه: البقية القليلة التي تبقى في آخر الإناء[٦١] ، وهي قليلة لا تـشفي غلـيلاً، وتـسد رمقـاً، فإذا تمَّ شربها من قِبل شارب الإناء قيل اشتفها.

إذن فهذا حاله مع الطعام والشراب، فهو نهم أكـول، شـره شـروب، ولـيس هذا من مكارم الأخلاق، بل هو ممـا يقـبح ويُـذم، وقبـيح أن يوصـف الرجـل بكثـرة الأكل والشرب، بل يُمدح بقلتهما.

ولم تقف عيوب هذا الزوج عند الأكل والشرب، بل تعدى ذلـك وتجـاوزه، فجمع إلى عيوبه عيباً آخر، أشارت إليه بقولها (وَإِنْ اضْطَجَعَ الْتَفَّ وَلَـا يُـولِجُ الْكَـفَّ لِيَعْلَمَ الْبَثَّ)، فذكرت حاله عند النوم، وموقفه منها، وإهماله لها، وعدم التفاته إليها، وفي جمعها بين الأكل والشرب وبين النوم محسن بديعي، وهو مراعاة النظير، ويُسمى ـ أيضاً ـ التناسب، وهو ـ كما عرَّفه الخطيـب القـزويني(ت٧٣٩هـ)ـ :«أن يُجمـع في الكلام بين أمر وما يناسبه لا بالتضاد»[٦٢] ، وقوله (لا بالتضاد)، قيـد أخـرج المقابلـة؛ لأن المناسبة بينهما هي التضاد، والمراد بالتناسب في كلام المرأة: هو حديثها عن الأكل والشرب وعند النوم، وذكرها في سياق واحد، فثمة مناسبة بـين النـوم، وبـين الأكـل والشرب؛ وذلك أن هناك أمراً يشتركان فيه، فهما جميعاً من أحوال الإنسان التي يكون عليها، وحاجة من حوائجه التي لا يستغني عنها، ومن بلاغة هذا الأسلوب أنـه يجمـع الأمور المتناسبة في مقام واحد، ومن ثم يظهرها بجلاء، وذلك ما أرادته هذه المرأة حين جمعت هذه الأمور كلها فيـسياق واحـد، فقـد أوضـحت خـلال زوجهـا أتم إيـضاح، وبينتها أتم بيان من خلال ذكر كثير من أوصافه ونعوته في جميع أحواله، فذكرت حالـه في الأكل، وطريقة أكله، وحاله ـ كذلك ـ في الشرب، وطريقة شربه، ثم بينت ـ أيضاًـ نومه والطريقة التي ينام عليها، فكان في ذلك أتم بيان لحال هذا الزوج، ولأخلاقه الـتي يتخلق بها .

ومعنى قولها (وَإِنْ اضْطَجَعَ الْتَفَّ) أي أنه يتلفف بكسائه، ويرقد في ناحية فراشه، وينقبض عن زوجه، ولا يقرب منها، ولا يُقَرِّبُها إليه، المعنى المراد من ذلك: أنه لا يبالي بها «وكأن بينه وبين زوجه حجاباً يفصل بينهما، وذلك كناية عن أنه لا يلامسها، ولا يكون منه معها ما يكون بين الرجل وزوجه». [٦٣]

إذن فقولها (وَإِنْ اضْطَجَعَ الْتَفَّ) كناية منها عن ترك الجماع، والملاعبة معها والمداعبة، وقد ظهر ـ من خلال هذه الكناية ـ حسن منطق هذه المرأة، وعلو كعبها في البيان، وحسن خلقها وأدبها، فقد كنّت بهذه الألفاظ مما يُستحى من ذكره، والتصريح به، وخصوصاً من قِبل النساء، التي ينبغي أن يكن على قدر كبير من التعفف والحياء، ولذا فقد تحدثت عن حقوقها الزوجية، وذكرت إهمال زوجها لها، وعدم قيامه بها على الوجه الأكمل، ولكنها عبرت عن ذلك كله«بأسلوب رمزي شفاف بعيد عن ما يستحى من ذكره، أو يُستهجن لفظه». [٦٤]

ثم ختمتْ المرأة كلامها بقولها (وَلَا يُولِجُ الْكَفَّ لِيَعْلَمَ الْبَثَّ)، وفي ذكر هذه الجملة تأكيد للجملة التي قبلها، وامتداد في بيانها عن إهمال زوجها لها، تصفه بغفلته، وإهماله لها، ولذا فهو لا يمد يده؛ ليعلم ما هي عليه من الهمّ والغمّ؛ حتى يزيله، والمراد بالبث:أشد الحزن، كما يطلق ـ كذلك ـ على المرض، وغيره مما لا يطيقه الإنسان، ولا يصبر عليه[٦٥]، والمعنى: «أنه لا يدخل يده في ثوبها؛ ليجسها متعرفاً لما بها كما هو عادة الناس من الأباعد، فضلاً عن الأزواج». [٦٦]

وقولها هذا كناية ـ أيضاً ـ عن غلظة زوجها، وعدم حنوه عليها، وشفقته بها، وإشارة ـ كذلك ـ إلى بعده عنها، وعدم تفقده لأحوالها، وذلك دليل على عدم محبته لها، وميله نحوها، وللدكتور عبدالقادر حسين كلام نفيس عن هذه الجملة مبيناً المراد بها، والكناية التي تضمنه كلامها، والغرض الذي تريد الوصول إليه، يقول:«أي أنه يهمل امرأته وينبذها، فلا يتجاوب معها حديثاً، ولا يدير معها حواراً، ولا يخفف

عنها حزناً، ولا يزيل عنها كرباً، ولا يكشف عنها ضراً، وفي ذلك كسر لخاطر المرأة، وتحطيم لقلبها، بل إنه ـ أيضاً ـ لا يداعبها حتى تستمتع به ويستمتع بها، وهذا كناية عن عدم رغبته فيها، ووصاله لها، وأنها لم تنل منه الحظوة)) .[٦٧]

ومما تضمنه كلامها من البلاغة: السجع، فقد سجعت في قولها (لَفَّ، اشْتَفَّ، الْتَفَّ، الْكَفَّ)، وهو سجع محمود، جاء عفو الخاطر، سمحاً، لا تكلف فيه، فلم تلوِ أعناق الألفاظ من أجل سجعها، وما أكرهتها، ولا عسفتها بل تركتها على سجيتها، فانثالت الألفاظ انثيالاً، والأهم في هذا أنها طوعت هذه الألفاظ المسجوعة لفكرتها، وللمعنى الذي تريد تقريره وتحقيقه، ومن هنا حسُن سجعها، وصار بليغاً مقبولاً؛ وذلك أن هذا السجع، بل المحسنات البديعية كلهالا تقع موقعها من الحسن إلا إذا تطلبها المعنى، واستدعاها المقام، ومن هنا فإنه لا يجمل الاسترسال بهذه الفنون البديعية، ولا الولوع بها؛ وذلك أن المعاني لا تدين للألفاظ دائماً، وفي كل موضع، كما لا تنقاد لها في كل حين، بل تتأبى عليها أحياناً، ولا تستجيب لها[٦٨] ، أما إذا جاء السجع عفواً غير متكلف فيه، وقد تطلبه المعنى، واستدعاه المقام فقد جمع الحسنيين، وأدى الغرض المنوط به، وقد أكَّد هذه الحقيقة وبينها عبدالقاهر الجرجاني (ت٤٧٤هـ) بقوله : ((ولن تجد أيمن طائراً، وأحسن أولاً وآخراً، وأهدى إلى الإحسان، وأجلب للاستحسان من أن تُرسل المعاني على سجيتها، وتدعها تطلب لأنفسها الألفاظ، فإنها إذا تُركت وما تريد لم تكتس إلا ما يليق بها، ولم تلبس من المعارض إلا ما يزينها، فأما أن تضع في نفسك أنه لا بد من أن تجنس أو تسجع بلفظين مخصوصين فهو الذي أنت منه بعرض الاستكراه، وعلى خطر من الخطأ، والوقوع في الذم)).[٦٩]

يدل على أن هذه المرأة طوعت سجعها للمعنى، وليس العكس، قولها في الأخير (لِيَعْلَمَ الْبَثَّ)، فلو كان السجع همها، ومنتهى غايتها، لجاءت بكلمة تنتهي

بحرف الفاء، ولن تعجز عن ذلك، وهي البليغة في منطقها، ولكنها عدلت عن ذلك، وضربت عنه صفحاً، وجاءت بهذه الكلمة (الْبَثَّ)؛لأنها وحدها هي التي تعبر عن مرادها، وتحقق مقصودها، ولذلك ذكرتها، وقطعت سجعها، وهذا هو المطلوب، والمنهج الصحيح في التعامل مع السجع، أن يكون قدر الحاجة، وأن يكون طوعاً للمعنى، وخدمة له.

(قَالَتْ السَّابِعَةُ زَوْجِي غَيَايَاءُ أَوْ عَيَايَاءُ طَبَاقَاءُ كُلُّ دَاءٍ لَهُ دَاءٌ شَجَّكِ أَوْ فَلَّكِ أَوْ جَمَعَ كُلًّا لَكِ)

تصف هذه المرأة زوجها مخبرة أنه في غاية الحمق والسوء، وفي منتهى القسوة والغلظة في التعامل معها، فقد بلغ في ذلك مبلغاً عظيماً لا مزيد عليه، فذكرت أنه (غَيَايَاءُ)، من الغياية وهي الظلمة الشديدة، حالكة السواد، وتقصد بذلك أن تصفه بالعجز والحيرة، فهو لا يهتدي إلى سبيل، ولا يتبين أمره، كأنه أبداً في ظلمة لا يبصر مسلكاً، ولا وجهة يتجه لها، ويسير نحوها.(٧٠)

وقيل: إن المراد: الانهماك في الشر، والولوغ في الغي والضلال، ولذا فالظلام يكتنفه من كل جانب، ظلام دامس لا إشراق فيه، إذا أخرج يده لم يكد يراها.(٧١)

وأما (العَيَايَاء) فهو مأخوذ من العجز والقصور، والمراد به: مَن تعييه مباضعة النساء، يدل على ذلك قول أبي عبيد:«والعياياء من الإبل الذي لا يضرب ولا يُلْقِح، وكذلك من الرجال».(٧٢)

ويصح أن يكون من العي، وهو الحصر والعجز في المنطق، فهو لا يبين في منطقه، ولا يعرف كيف يفصح عن رغبته فيها(٧٣)، وقيل: هو الذي لا يهتدي إلى شيء، ولا يعرف كيف يتصرف في أموره، ولا إلى أين يتجه.(٧٤)

وليت أمره وقف عند هذا، وما هو بهين، فهو مع ذلك (طَبَاقَاءُ)، وهو المطبق عليه حمقاً ورعونة، والمراد به: الغبي الأحمق، الفَدْم. (٧٥)

ولذا فزوجها هذا انطبقت عليه أموره كلها، في كل ميدان حيثما اتجه وسار، بل حتى في منطقه وبيانه،« فقد انطبق عليه الكلام وانغلق، فهي تصفه بعجز الطرفين، وقصوره في النكاح والكلام». (٧٦)

فإذا كان هذا حاله، وتلك نعوته فلا غرو تقول بعد هذا (كُلُّ دَاءٍ لَهُ دَاءٌ)، ومرادها بذلك: أن تخبر أن كل داء يعرفه الناس فهو فيه، أي أن جميع العيوب والنقائص قد تجمعت فيه(٧٧) ، ولذا فإن عبارتها هذه غاية في الإيجاز، وهو من إيجاز القِصَر، فقد حوت بألفاظها القليلة كثيراً من المعاني، فقد حصرت المعاني وأحاطت بها بأقل الألفاظ، فقد ذكرت الأمراض التي يعرفها الناس كلها، وذكرت أنها مجتمعة في زوجها، دون أن تعدد هذه الأمراض أو تذكرها، فهي أكثر من تُحصر، وأكبر من أن يُحاط بها، وقد وظفت المرأة بلاغة هذا الأسلوب في الحديث عن زوجها، وفي الإشارة إلى ما تجمع فيه من العيوب والنقائص.

ولم يقف أمر هذا الزوجعند سوء أخلاقه، وما طُبع عليه، بل تجاوزه إلى ضربها، وإلحاق الضرر بها، وقد بينت هذا في قولها (شَجَّكِ أَوْ فَلَّكِ أَوْ جَمَعَ كُلًّا لَكِ)، فهو يضربها الضرب المبرح في كل مكان من جسمها، فحيناً يضربها مع رأسها فيشجه لها، وحيناً يكون ضربه لجسدها، وذلك مرادها بقولها (أَوْ فَلَّكِ)، وحيناً يبلغ التطاول غايته، ويبلغ به السوء والأذى منتهاه، فيجمع لها ذلك كله فيشج رأسها، ويضربها مع جسدها كله.

ولذا فإن هذا الزوج من خلال ما وصفته زوجته به ينطبق عليه قول القائل: (أَحَشَفَاً وَسُوْءَ كِيْلَة) (٧٨)، فما كفاه أنه غَيَايَاءُ عَيَايَاءُ طَبَاقَاءُ ، وما توارى خجلاً أن كل داء تفرق في الناس تجمع فيه، ومع ذلك فما خجل ولا ارعوى، فأضاف إلى قبائحه قبحاً آخر، وهو ضربه لها، بل تفننه في ضربها وتنوعه.

وليس ثمة أبشع من تلك الحالة التي وصل إليها زوجها، ولا أغرب إلا ألفاظها التي تحدثت بها، وعبرت بها، ولذا فإن أسلوبها هذا يُعد من ائتلاف اللفظ مع المعنى، وهو قسم من أقسام مراعاة النظير، وهو باب من أبواب البلاغة، بل هو من البلاغة العالية التي تروعك بنظمها، وتأخذ لبَّك بجزل لفظها، وبتلاؤم لفظها مع معناها، وانتظامهما في عقد فريد، وقد تحدث عنه البلاغيون في كتبهم، وأشادوا به، وقد ذكر العلوي (ت٧٤٩هـ) المقصود به، مبيناً في الوقت نفسه جليل قدره، وسمو منزلته في سماء البلاغة، يقول:((هو أن تكون الألفاظ لائقة بالمعنى المقصود، ومناسبة له، فإذا كان المعنى فخماً كان اللفظ الموضوع له جزلاً، وإذا كان المعنى رقيقاً كان اللفظ رقيقاً، فيطابقه في كل أحواله، وهما إذا خرجا على هذا المخرج وتلاءما هذه الملاءمة وقعا من البلاغة أحسن موقع، وتألفا على أحسن شكل، وانتظما في أوفق نظام، وهذا باب عظيم في علم البديع، وجاء القرآن الكريم على هذا الأسلوب)) .[٧٩]

ومن هنا يتضح بلاغة المرأة في حديثها عن زوجها، من خلال توخيها لهذه الألفاظ الغريبة، وفي ذلك ملاءمة منها لغرابة حال زوجها، ولسوء تعامله معها، فكان في حديثها ائتلاف بين اللفظ والمعنى، ولا يقدر على هذا القول إلا من أُوتي حظاً وافراً من البلاغة والبيان، وذلك أنه أساس الكلام البليغ، وجوهر البلاغة، وتوخي الألفاظ بدقة للتعبير عن معنى المرء ومراده .

(قَالَتْ الثَّامِنَةُ: زَوْجِي الْمَسُّ مَسُّ أَرْنَبٍ وَالرِّيحُ رِيحُ زَرْنَبٍ) فهي تصف زوجها بأفضل النعوت وأرقها، وتمدحه مدحاً عطراً، وقد اعتمدت هذا المرأة في كلامها على أسلوب التشبيه؛ لتتمكن من خلاله إلى إظهار صفات زوجها، وبيانها أتم بيان؛ لِمَا في أسلوب التشبيه من الإيضاح والبيان؛ ولِمَا فيه من تشبيه المعقول بالمحسوس، وجعله مشاهداً ماثلاً للناظرين.

فقالت في الجملة الأولى: (زَوْجِي الْمَسُّ مَسُّ أَرْنَبٍ) أي أنه لين الجسد ناعمه، فهو في منتهى الرقة والنعومة، وقد بينت هذا المعنى أتم بيان حين شبهت مسه بمس الأرنب، وقد حققت غرضها من خلال هذا التشبيه، وصورته أتم تصوير؛ وذلك أنه لين الملس، ناعم الوبر.

وقد جاء اختيارها للأرنب دقيقاً، فكان في ذلك بلاغة منها لإصابة غرضها، وتحقيق هدفها؛ وذلك لِمَا فيه من لِيناً ونعومة، بسبب وبره الذي يغطي جسمه كله، ولن تجد أرق ولا أنعم من وبر الأرنب《الذي تنزلق منه الأصابع حين تمر عليه؛ لشدة نعومته، وقد أرادت من هذا التشبيه الإشارة إلى لين جانبه، وحسن خلقه، وحلو معشره》. [٨٠]

ولم تقف خلال زوجها عند هذا، فقد توافرت فيه كثير من الصفات الحميدة، والخلال الجميلة، وهاهي تذكر طرفاً منها، بقولها (وَالرِّيحُ رِيحُ زَرْنَبٍ)، وهاهي مرة أخرى تعتمد على أسلوب التشبيه في حديثها عن زوجها؛ لبيان محاسنه، وإظهارها بأحلى صورها وأوضحها، فهي تشبه رائحته برائحة الزرنب، وهو نبت طيب الرائحة[٨١]، ولقد أرادت من هذا التشبيه: أن تشير إلى طيب ثنائه في الناس، فهو حسن السيرة، عطر الأخلاق، تفوح من أخلاقه رائحة الطيب والعنبر، وقد يكون مرادها بذلك: الإشارة إلى نظافته، وطيب جسده، وعطر أردانه، وكثرة استعماله للطيب[٨٢] ، وهذه الصفات من الأهمية بمكان، وتقع في نفس المرأة موقعاً حميداً، وقد تكون هذه المعاني كلها مرادة؛ إذ لا تناقض بينها، بل إن مدحها له وثناءها عليه يستدعي توافرها كلها فيه، كما أنه استحق هذا الثناء العطر منها بسبب أخلاقه الحميدة التي توافرت فيه، فلا ضير أن تكون أرادت هذه المعاني كلها مجتمعة فيه .

تتجلى بلاغة هذا التشبيه وحسنه في هذا المقام أنه من التشبيه البليغ الذي حُذفت منه الأداة، ووجه الشبه، وكأنها تعمدتْ أن تذكر التشبيه بهذهالصورة، فثمة

سرٌّ بلاغي من حذف أداة التشبيه، ووجه الشبه كـذلك؛ وذلـك أن وجـود أداة الـشبه تشير إلى وجود طرفين، ومن ثَم نشبه أحدهما بـالآخر، فثمـة فـرق بـين قـولي: زيـد كالأسد، وقولي: زيد أسد، فأنا ـ في المثال الثاني ـ لا أشبه زيداً بالأسد، بل هو الأسد نفسه، ولذلك حُذفت الأداة، إشارة إلى هذا المعنى.

وفي حذف وجه الشبه ـ كذلك ـ أسرار بلاغية أخرى؛ وذلك أن وجـه الـشبه بينهما ليس شيئاً واحداً ولا اثنين حتى يذكر، فكأنـه استعـصى علـى العـد والحـصر، فنحن نعدد منها ولا نعـدها، كمـا أن في ذلـك دعـوة إلى مزيـد مـن التأمـل والنظـر؛ للوقوف على وجه الشبه بينهما، ولو ذُكر وجه الشبه لانحصر الـذهن في المـذكور، ولم يتجاوزه إلى ما سواه، ومن هنا فإن حذف وجـه الـشبه أبلـغ في التأكيـد علـى وجـود المماثلة بين المشبه والمشبه به، ومن هنا جاء التشبيه في كلام المرأة ـ في كلا الموضـعين ـ من التشبيه البليغ؛ إشارة إلى مدى المماثلة التامة بينه وبين ما شبهته به، وهـذا أبلـغ في المدح، وأدعى إلى تقرير هذه المعاني وتأكيدها.

كما أن تعدد التشبيه وتتابعه إشارة منها كذلك إلى مـا تـوافر في زوجهـا مـن كريم السجايا، وجليل الصفات، فلو اقتصرت في مدحها على التشبيه الأول لكـان في ذلك بلاغة منها وبلاغ، ولكن توافر الصفات الجميلة في زوجها ألجأها إلى الاسـتطراد في مدحه، والحديث عنه، ولذا أتبعت تشبيهها الأول بالتشبيه الثاني، وفـاءً منهـا لحـق زوجها، واعترافاً بفضله، وحسن خلقه، فاكتمل المعنى من خلال هذين التـشبيهين أتم بيان، واتضح بأجلى صورة وأوضحها .

ومن المحسنات البديعية في كلامها: ائتلاف اللفظ مع المعنى، فتجد أن ألفاظها تقطر رقة وعذوبة، فجاءت أرق من مـس الأرنـب، وأكثـر لينـا منـه، يتـضوع منهـا ـ كذلك ـ الرائحة الطيبة، وقد ناسبت هذه الألفاظ ورقتها رقة زوجها، ونعومة ملمسه،

وحسن مظهره، فعبرت بهذه الألفاظ أبلغ تعبير عن مرادها، وكانت مؤتلفة مع المعنى أتم ائتلاف.

وقد استوجبت رقة زوجها، ولين ملمسه هذه الألفاظ، ورشحتها على غيرها، وكأن هذه الرقة، وتلك النعومة لا تتحمل ألفاظاً قوية مجلجلة، أو غريبة حوشية، ولا تراكيب جزلة، بل لا طاقة لها بحمل هذه الألفاظ، واصطحاب تلك التراكيب، وكأن زوجها ـ أيضاً ـ وتلك نعوته ـ ينوء بحمل هذه الألفاظ، ويتعذر عليه أن يُوصف بها، أو يصعب عليه أن تظل معه وتلازمه، كيف لا وهو ألين في ملسمه من الأرنب، وأطيب في عرفه من الزرنب؟!

وهذا من ائتلاف اللفظ مع المعنى، فالمعنى الرقيق له ألفاظ رقيقة، تليق به، وتعبر عنه، ومن هنا نجد المفارقة التامة بين ألفاظها، وألفاظ المرأة التي قبلها، فهده مدحت زوجها بلين جانبه، ورقة حاشيته، وطيب عرفه فجاءت ألفاظها تقطر رقة وعذوبة، فكانت أرق من النسائم، بخلاف المرأة التي قبلها فقد كان قبح خلق زوجها، وقسوة تعامله معها وغرابته سبباً لغرابة ألفاظها وجزالتها، ومن ثم جاءت ألفاظ كل واحدة من هاتين المرأتين وفقاً لحال الزوج، مؤتلفة أشد الائتلاف معها، وهذا من البلاغة في الصميم أن تُعطى كل حالة لبوسها من الألفاظ والتراكيب، وأن تُقد الألفاظ بقدر المعاني، وأن تكون وفق طبيعتها متلائمة معها، وقد أشار النقاد إلى هذا الأمر كثيراً، وأشادوا به، بل ودعوا إليه، ومن ذلك قول القاضي الجرجاني (ت٣٩٢هـ) :« لا آمرك بإجراء أنواع الشعر كله مجرى واحداً، ولا أن تذهب بجميعه مذهب بعض، بل أرى لك أن تُقسِّم الألفاظ على رتب المعاني، فلا يكون غزلك كافتخارك، ولا مدحك كوعيدك، ولا هجاؤك كاستبطائك، ولا هزلك بمنزلة جدك، ولا تعريضك مثل تصريحك، بل ترتب كلا مرتبته، وتوفيه حقه، فتلطّف إذا تغزلت،

وتفخِّم إذا افتخرت، وتتصرف للمديح تصرف مواقعه؛ فإن المدح بالشجاعة والبأس يتميز عن المدح باللباقة والظرف، ووصف الحرب والسلاح ليس كوصف المجلس والمدام، فلكل واحد من الأمرين نهج هو أملك به، وطريق لا يشاركه الآخر فيه)). (83)

ومن الأساليب البلاغية ـ كذلك ـ في كلامها قولها: ــ في غير الصحيحين ـ (وَأَغْلِبُهُ وَالنَّاسَ يَغْلِب) (84) ، وقد تضمن كلامها هذا أسلوب الاحتراس، وهو طريق من طرق الإطناب، وذلك في قولها (وَالنَّاسَ يَغْلِب)، وبيان ذلك: أنها لو اقتصرت على قولها (وَأَغْلِبُهُ) لما كان في ذلك مدح لزوجها، بل لظُن أنه جبان ضعيف، يؤيد هذا الظن ويقويه: وصفها له في أول كلامها بأنه كالأرنب في لين ملمسه، ومعلوم أن الأرنب ضعيف لا حول له ولا قوة، بيد أن هذه الظنون كلها غير صحيحة ولا مرادة، فهي لم تقصد ذلك، ولم ترد أن تنعته بهذا، بل أرادت خلاف ذلك، ومن أجل أن تطرد هذا المعنى غير الصحيح، وحتى لا يُفهم من كلامها معنى هي لا تريده ولا تقصده جاءت بقولها (وَالنَّاسَ يَغْلِب) احتراساً، وإشارة إلى قوته وشجاعته، فهو غالب للناس، منتصر عليهم، لا يجرؤ أحد الإقدام عليه أو منازلته، فضلاً أن يكون بينهم ضعيفاً أو مغلوباً.

ومن هنا يتضح أن قولها (وَأَغْلِبُهُ) إشارة منها إلى حسن عشرته معها، وكريمسجاياه، ولينه في التعامل معها، والرفق بها، حتى إنها تغلبه، ولا يضيره ذلك ولا يحطُّ من شأنه، ولا يهوي به من عليائه، فذلك ديدن الرجال الكرماء، وشيمة من شيمهم، ولكن المصيبة أن يكون الرجل مغلوباً خارج بيته ضعيفاً، غالباً في بيته، فظاً غليظاً.

ومن بلاغة هذا المرأة: السجع في كلامها، فقد جاءت كل جملة مسجوعة بحرف الباء في قولها (أَرْنَبٍ، زَرْنَبٍ، يَغْلِب) وهو من السجع المقبول، بل هو من البلاغة، فقد جاء سمحاً تلقائياً لا تكلف فيه، فقد كان ينساب من فمها انسياباً، لا تشعر أن الألفاظ فيه مقحمة من أجل سجعها، فهي لم تَلْوِي أعناق ألفاظها ولم تقسرها، بل جاءت كل لفظة في مكانها، وأخذت كل واحدة من الألفاظ محلها فتجانست مع أخواتها، بل لو أرادت أن تعدل عن تلك الألفاظ إلى ألفاظ أخرى ما طاوعتها لغتها، وكان في ذلك التكلف والإكراه، يدل على حسن سجعها، وأنه كان عفو الخاطر أنها وظفت هذه الألفاظ، وذلك السجع في إظهار معناها، وفي خدمة فكرتها، فطوعتها وذللتها في بيان مرادها، وإيضاح مقصودها، وهذا الأمر من الأهمية بمكان، فينبغي أن يكون السجع طوعاً للمعنى، ينقاد له ويخضع لحكمه، وليس العكس، ومن هنا حسن سجعها، فكان من البلاغة.

ولما كان سجع هذه المرأة مقبولاً وبليغاً حرصت عليه، والتزمت به، بل وقدمت من ألفاظها وأخرت؛ حفاظاً على هذا السجع، وذلك في قولها (وَالنَّاسَ يَغْلِب) ، ولا ضير في ذلك، بل هو بلاغة منها، وتمكن في فن القول ولقانة منها، فقد ضمَّنتْ كلامها السجع وحافظت عليه، كما قدمت وأخرت، وطوعت الألفاظ لغرضها وفكرتها.

وقد تضمن التقديم والتأخير في قولها (وَالنَّاسَ يَغْلِب) أغراضاً بلاغية مقصودة، تخدم فكرتها، فقد أرادت من خلال هذا التقديم أن تبين موقف زوجها من الناس، وغلبته لهم، بل وحرصت أن تُعجِّل بذكر هذه الحقيقة، فكأنها لما قالت: (وَأَغْلِبُهُ) تساءل الناس عن موقفه من الآخرين، هل يغلبونه أيضاً؟ فبادرت في بيان أمره، مبينة أنه يغلبهم، فقدمت لفظة (الناس) تعجيلاً لإظهار هذه الحقيقة، فكان هذا

التقديم تتميماً لأسلوب الاحتراس وإظهاراً له، ولذا فقد حوت هذه الجملة (وَالنَّاسَ يَغْلِب) على عدة أسرار بلاغية: الاحتراس، والتقديم، والسجع، وهذا خير شاهد على بلاغتها، وعلى علو كعبها في ميدان الفصاحة والبلاغة، وقد وظفت بلاغتها في مدح زوجها، في بيان ما اشتمل عليه من كريم السجايا، وجميل المحاسن .

(قَالَتْ التَّاسِعَةُ: زَوْجِي رَفِيعُ الْعِمَادِ طَوِيلُ النِّجَادِ عَظِيمُ الرَّمَادِ قَرِيبُ الْبَيْتِ مِنْ النَّادِ) تمدح زوجها، وتضفي عليه أجمل النعوت، وأفضل الأخلاق، فتذكر أنه شجاع كريم، يقصده الناس جميعاً: القريب، والبعيد، فيقري الضيف، ويكسب المعدوم، ويعين على نوائب الدهر، ويتصدى للمحتاجين، ولذا فهو يسكن قريباً منهم، ويعيش في أوساطهم.[٨٥]

بيد أنها لم تصرح بهذه المعاني، وتذكرها مجردة من البلاغة، فقد اتخذت من الكناية سبيلاً في بيانها، والحديث عنها، ولذا فإن كلامها من العبارات المشهورة التي يتداولها علماء البلاغة والبيان في كتبهم، ومؤلفاتهم في باب الكناية.

فأرادت بقولها (رَفِيعُ الْعِمَادِ) ارتفاع بيته في الحسب والنسب، وأشارت بذلك إلى ارتفاع عماد بيته، وأصلها: العيدان التي تعمد بها البيوت، وتقوم عليها[٨٦]، وتقصد من ذلك: أن تنعته بالشرف الرفيع، فمن شأن الأشراف وديدنهم أن بيوتهم مرتفعة؛ ليقصدهم الطارقون، ولتكون ملاذاً للعابرين والسالكين.

وهي كناية عن صفة، فقد أرادت من هذه الكناية الإخبار عن زوجها أنه كريم سخي، كما أنه ذو حسب في قومه ونسب، إشارة ـ كذلك ـ إلى عظيم قدره فيهم، وسعة ثرائه، وكثرة ماله، وقد دلت على ذلك كله بقولها (رَفِيعُ الْعِمَادِ)، ومن هنا تتجلى بلاغة أسلوب الكناية، ويتضح المراد بها، فهي: أن تتكلم بالشيء، وتريد غيره، مما يُستدل به عليه، مأخوذة من الستر والتغطية، ومن ذلك الكنية؛ لأنها تستر

الاسم، وتظهر شيئاً آخر غيره(٨٧) ، وهي في الاصطلاح:« لفظ أُريد به لازم معناه، مع جواز إرادة معناه حينئذ» (٨٨) ، ولذا فتقصد المرأة بقولها (رَفِيعُ الْعِمَـادِ) لازم معناهـا، وهو ما يترتب عليه، أو ما كنَّت عنه من كون زوجها كريماً سخياً، ذا شرف في قومـه، وذا نسب وحسب.

ثـم بينـت عـن زوجهـا ـ أيـضاً ـ أنـه (طَوِيـلُ النِّجَـادِ)، وهـي كنايـة عـن امتدادقامته؛ وذلك أن طول القامة مستلزم طـول النجـاد، فهـي تـصفه بحـسن هيئتـه، وجمال صورته، وامتداد قامتـه، ولا غـرو أن تمـدح زوجهـا بـذلك، ولا ضـير عليهـا، فالعرب تتمادح بالطول، وحسن القامة، وتذم بالقصر، وذلك معلوم من لغة العـرب، ومحفوظ في أشعارهم .(٨٩)

ومن خلال كلام هذا المرأة تتجلى بلاغة أسلوب الكناية، وتكمن بلاغتهـا في كونها تعطيك الحقيقة مصحوبة بدليلها، وتذكر القـضية وفي طياتهـا برهانهـا الـشاهد عليها، ولذا فهي تمتاز بالإقناع والإمتاع معا، وقـد وظفتهـا المـرأة أحـسن توظيـف في مدح زوجها، والثناء عليه، ولذا فقد أعطتنا هذه المرأة دليلاً على طول قامـة زوجهـا، وحسن هيئته بطول نجاد سيفه، ولذا أقررنا بقولها، وسلمنا لها بذلك.

والكناية في قولها (طَوِيلُ النِّجَادِ) كنايـة ـ كـذلك ـ عـن صـفة، فقـد أشـارت بذلك ـ كما علمنا ـ إلى طول قامته، وهي من الكنايات القريبة، وهي: ما تقارب فيهـا المعنيان، فيتم الانتقال من المعنى المكنى به إلى المعنى المكنى عنه بلا واسطة(٩٠) ، وبيان ذلك: أن المراد من قولها: "طَوِيلُ النِّجَادِ" طول القامة، وليس ثمـة واسـطة بـين هـذين المعنيين، أو ليس هناك انتقالات بينهما حتى نصل إلى المعنى المراد، كما هـو الحـال في الكناية البعيدة.

ولم تقف شمائل زوجها عند هذا، فلا زال فيها مزيد، وفي جعبة هذا المرأة كثير من الأوصاف الحسنة عن زوجها، فهي لم توفيه حقه بعد، ولذا فذكرت عنه ـ أيضاً ـ أنه (عَظِيمُ الرَّمَادِ)، وذلك كناية ـ كذلك ـ عن شدة كرمه، فهو مضياف، كثير القِرى، وقد دلتنا بذلك على كثرة رماده؛ وذلك أن نار قراه للضيوف لا تنطفئ أبداً؛ ليهتدي بها الضيفان إليه، ومن ثَم كان رماده عظيماً كثيراً، وفي ذلك إشارة إلى كثرة طبخه، الدال ـ كذلك ـ على كثيرة ضيوفه، وتتابعهم عليهم، وهكذا دلت هذه المرأة على كرم زوجها، بعظيم رماده، فكان في ذلك تأكيد لقولها، وإثبات لصحة دعواها.

وقولها (عَظِيمُ الرَّمَادِ) كناية ـ كذلك ـ عن صفة، وهي الكرم، وهي من الكنايات البعيدة؛ وذلك أن الانتقال من المعنى المكنى به إلى المعنى المكنى عنه لا يتم إلا بعدة وسائط، فدلالة كثرة الرماد على الكرم تكون بعدة انتقالات؛ وذلك أن عظم الرماد مستلزم كثرة إيقاد النار تحت القدور، وذلك مستلزم ـ أيضاً ـ كثرة الطبخ، وهو مستلزم ـ كذلك ـ كثرة الآكلين، كما يستلزم معه كثرة الضيوف، وذلك كله دال على الكرم، ومن هنا نرى أن ثمة انتقالات كثيرة بين (عَظِيمُ الرَّمَادِ)، وهو المعنى المكنى به، بين (الكرم)، وهو المعنى المكنى عنه، ولذا صارت كناية بعيدة، وقد أشار السكاكي(ت ٦٢٦هـ) إلى هذه الوسائط، وتلك الانتقالات، يقول:«فتنتقل من كثرة الرماد إلى كثرة الجمر، ومن كثرة الجمر إلى كثرة إحراق الحطب تحت القدور، ومن كثرة إحراق الحطب إلى كثرة الطبائخ، ومن كثرة الطبائخ إلى كثرة الأكلة، ومن كثرة الأكلة إلى كثرة الضيفان، ثم من كثرة الضيفان إلى أنه مضياف، فانظر بين الكناية، وبين المطلوب بها ترى من لوازم» .[٩١]

وذكرت ـ أيضاً ـ من صفاته أنه (قَرِيبُ الْبَيْتِ مِنْ النَّادِ)، وذلك ـ أيضاً ـ كناية عن الكرم، ويُسمى هذا النوع من الكناية: التلويح؛ وذلك أنك في التلويح تشير

إلى غيرك من بُعد، وقد عرَّفها الطيبي(ت٧٤٣هـ) بقوله: ((هو ما يُشار به إلى المطلوب من بعد مع خفاء)) [٩٢]، وهي كذلك في هذا النوع من الكنايات؛ لوجود مسافة متباعدة بين المعنى المكنى به والمكنى عنه، وكأن ذلك مستلزم تلويحاً لما بينهما من تباعد. [٩٣]

إذن فقولها (قَرِيبُ الْبَيْتِ مِنْ النَّادِ) كناية عن كرمه، ونبل خلقه، وحسن شمائله، واستدلت على ذلك بكونه قريب البيت من الناد، وهو مجلس القوم، ومجتمع أهل الحي، فقد قرُب مَحلُّه من الناس، واقترب الناس منه، فهو ينزل بين ظهرانيهم، قريب منهم؛ ليكون مقصد الوارد، وبغية الوافد، وطالب الضيافة، كما أنه قريب منهم؛ ليسهل لقاؤه، ولذا فهويتلقاهم بالترحاب، ويبادر بضيافتهم، وإكرامهم،((ولا يتوارى بأطراف الحلل، وأغوار المنازل، ويبعد عن سمت الوارد؛ فراراً من القاصد، وملاذاً من الطارق؛ لئلا يهتدوا إلى مكانه، ويستبعدوا موضعه، فيصدفون عنه، ويميلون إلى غيره)). [٩٤]

وقد يكون قولها (قَرِيبُ الْبَيْتِ مِنْ النَّادِ) كناية منها عن شرفه وسيادته على قومه، وزعامته فيهم؛ وذلك أن قومه إذا اختلفوا في أمر ما، أو تشاوروا فيه فهم لا يترددون في غشيان منزله؛ لقربه من مكان اجتماعهم، ومن ثَم فإنهم ينزلون عن رأيه، ويمتثلون أمره. [٩٥]

والكناية في قولها (قَرِيبُ الْبَيْتِ مِنْ النَّادِ) عن صفة، وهو المعنى الذي أرادت تحقيقه من خلال هذهالكناية، ونعت زوجها به، وهو إخبارها أنه كريم، سيد شريف مُطاع في قومه، كما أنها من الكناية البعيدة ـ كذلك ـ؛ لوجود كثير من الوسائط والانتقالات من المعنى المكنى به إلى المعنى المكنى عنه، وقد أشار الطيبي إلى هذه الوسائط، وتلك الانتقالات، يقول:((قولها (قَرِيبُ الْبَيْتِ مِنْ النَّادِ) يدل على معرفة

الناس بمكانه، ثم على كثرة تناوبهم إليه، وقصدهم إياه؛ لمهماتهم، ثم على سيادته وتفوقه)).[٩٦]

وأختم حديثي عن بلاغة هذه المرأة بكلام نفيس للقاضي عياض (ت٥٤٤ هـ)، أشار فيه إلى بلاغتها، وحسن منطقها، مشيراً في الوقت نفسه إلى بلاغة أسلوب الكناية الذي ضمَّنته كلامها، يقول:((وكان قولها (طَوِيلُ النِّجَادِ) أكمل وأبلغ من قولها (طويلاً)، إذ ثم طول دون طول، وكأنها أظهرت للسامع صورة يراها مع ما في هذه الصفة من طلاوة اللفظ مع الإيجاز لو أرادت تحقيق طوله المحمود لطال كلامها، وكذلك العبارة بكثرة النيران، ونزول قرب النادي مبالغة في الوصف بالكرم، وتحت هذه الألفاظ الوجيزة جمل كثيرة أعربت هذه الكنايات اللطيفة، والإشارات الخفية عنها، وأين هي في البلاغة والمبالغة من قولها لو قالت: زوجي كريم، كثير الضيفان، أو أكرم الناس، وأكثرهم ضيفاناً، فإن واحداً من هذه الأوصاف على كثرة ألفاظها، ومبالغة أوصافها لا ينتهي منتهى واحد من قولها (عَظِيمُ الرَّمَادِ) أو (قَرِيبُ الْبَيْتِ مِنْ النَّادِ)) .[٩٧]

(قَالَتْ الْعَاشِرَةُ: زَوْجِي مَالِكٌ وَمَا مَالِكٌ مَالِكٌ خَيْرٌ مِنْ ذَلِكِ لَهُ إِبِلٌ كَثِيرَاتُ الْمَبَارِكِ قَلِيلَاتُ الْمَسَارِحِ وَإِذَا سَمِعْنَ صَوْتَ الْمِزْهَرِ أَيْقَنَّ أَنَّهُنَّ هَوَالِكُ)، استفتحت حديثها بالإفصاح عن اسم زوجها، وهي الأولى بل الوحيدة التي تفصح عن اسم زوجها، ولا يخفى أن ذلك إشارة إلى حبها له، ومدى تمكنه في قلبها؛ وذلك أن الإنسان مولع بذكر من يحب، فلولا حبها له لما أجرت ذكره على لسانها، كما أن في ذلك تعظيماً له وتفخيماً.

وقد زادت هذا التعظيم وأكدته بقولها (وَمَا مَالِكٌ)؟؛ وذلك أن الغرض من الاستفهام: التعظيم، والتعجب، فقد عظمت أمره، وفخمت قدره وشأنه من خلال أسلوب الاستفهام، ومعنى (وَمَا مَالِكٌ)؟ أي: أي شيء هو مالك، ما أعظمه

وأكرمه؟!، وهو أسلوب معهود ومعروف في لغة العرب عند إرادة التفخيم والتعظيم، كما ورد ذلك في أفصح الأساليب وأبلغها القرآن الكريم، في قوله – تعالى – : ﴿ٱلْحَآقَّةُ مَا ٱلْحَآقَّةُ﴾ {الحاقة: ١-٢}، وقوله ﴿ٱلْقَارِعَةُ مَا ٱلْقَارِعَةُ﴾ {القارعة: ١-٢}:والمعنى: أي شيء هو ما أعظم أمرها، وأشد هولها.

وبعد أن فخمت شأنه، وعظمت قدره، بينت حقيقته، وكشفت أمره في قولها (مَالِكٌ خَيْرٌ مِنْ ذَلِكِ)، وفي قولها هذا مزيد من الإعظام له والإكبار؛ وذلك من خلال تكرار اسمه، ولا يخفى أن في ذلك مزيداً من التعظيم له، والحب والوفاء، وفي التصريح باسمه هنا دون عود الضمير إليه وقد تقدم، في ذلك إظهار في مقام الإضمار، ولو جرى الكلام على مقتضى الظاهر لقيل: هو خير من ذلك، ولكن كلامها جاء على خلاف مقتضى الظاهر، فصرحت باسمه، والإظهار في مقام الإضمار طريق من طرق الإطناب، يتجلى سرُّه البلاغي من خلال اللفظة المظهرة في هذا السياق، وهي كلمة (مالك)، فلا غرو أن تظهر هذه اللفظة، فهي محور حديثها، ومدار اهتمامها، وفي ذلك حفاوة بهذا الاسم، وتعظيم له، بل إنها ما ساقت هذا الحديث عنه إلا مساق التعظيم له، والإعجاب به، ولذا فقد وظَّفت منطقها في إظهار غرضها وتحقيقه، وقد أدى منطقها الغرض، وحقق المقصود في مدحه، والثناء عليه،ويأتي الإظهار في مقام الإضمار لغرض التعظيم والتفخيم كثيراً، ومن الشواهد على ذلك: قول الله ـ تعالى ـ ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾. {البقرة:٢٨٢}

ومعنى قولها (خَيْرٌ مِنْ ذَلِكِ) أي إن مالكاً أكبر من مدحي له، وثنائي عليه، فمهما قلت من المدح والثناء فهو خير مما أقول، فلن أوفيه حقه، ولن أبلغ شأوه، فكأن الألفاظ تقف عاجزة عن الإحاطة بكنهه، وشمول وصفه، فلن توفيه العبارة حقه، ولن تبلغ قدره مهما قالت، ولذا فهي تكتفي بالإشارة دلالة على عجزها

وقصورها في أن تبلغ مداه، إذ يعجز لسانها عن مدح زوجها، ووصفه الوصف اللائق به، الذي يوفيه حقه، ولا ينقصه.

وفي الاسم الإشارة إلى البعيد في قولها (ذلك) إشارة إلى هـذا المعنـى، فكأنهـا تشير إلى ما وقع في أذهان صويحباتها، وما ذهبن إليه من تخيل مالك، وما هو عليه من الشمائل والصفات، فتذكر لهن: أن شأو زوجها أبعـد ممـا ذهـبن إليـه، وكـأن الـذهن يقصر – وكذلك الألفاظ - في تصوره، والإحاطة به.

وفي اسم الإشارة إلى البعيد إشـارة ـ كـذلك ـ إلى أن زوجهـا قـد بلـغ مبلغـاً رفيعاً في الأخلاق والمكارم، فقد بلغ غايتها، واعتلى ذروتها، ولذا فهو خير من ذلك، وقد يكون مرادها بذلك: الإشارة إلى ما تقدم من كلام النسوة، ومدحهن لأزواجهـن فتذكر أن مالكاً خير مما تقدم ذكـره مـن الأزواج جميعـاً، فقـد ملـك خـصال الـسيادة والفضل(٩٨) ، وحاز قدم السبق فيها، ولذا فهو خير من ذلك.

ولذا فإن قولها (مَالِكٌ خَيْرٌ مِنْ ذَلِـكِ) مـن إيجـاز القـصر، فقـد حـوت هـذه الألفاظ القليلة معانٍ عدة، تعجز العبارة أن تحيط بها، ويقصر اللسان عن الإبانة عنهـا وذكرها، بل صرحت بذلك في قولها (مَالِكٌ خَيْرٌ مِنْ ذَلِكِ) فهـو خـير ممـا يُقـال عنـه، وخير مما قلن جميعاً عن أزواجهن، وقد أفاد هذا الإيجاز تفخيم مالك وتعظيمه.

كما أن قولها (زَوْجِي مَالِكٌ وَمَا مَالِكٌ مَالِكٌ خَيْرٌ مِنْ ذَلِكِ) من الإيضاح بعد الإبهام، وهو طريق منطرق الإطناب،فقد أبهمـت أولاً في قولهـا (زَوْجِـي مَالِـكٌ وَمَـا مَالِكٌ)، إذ المعنى ـ كما سبق ـ: أي شيء هو، فكان في ذلـك إبهـام لحقيقتـه، وإخفـاء لأمره، ثم أوضحت أمره، وبينت حقيقته في قولها (مَالِكٌ خَيْرٌ مِنْ ذَلِكِ) ولا يخفـى أن في ذلك تأكيداً لأوصافه وتثبيتاً لها، كما أنها بذلك تتمكن في نفوس الـسامعين أفـضل تمكين، وذلكم هو مقصدها، والغرض الـذي سـعت إلى تحقيقـه مـن خـلال أسـلوبها

وحديثها عن زوجها بهذه الطريقة؛ وذلك أن المعنى إذا أُلقي على سبيل الإجمال والإبهام تشوقت نفس السامع إلى معرفته على سبيل التفصيل والإيضاح، فتتوجه إلى ما يرد بعد ذلك، فإذا أُلقي تمكن فيها، وكان شعورها به أتم، واللذة بحصوله أعظم، لو أنها وقفت على قولها (زَوْجِي مَالِكٌ وَمَا مَالِكٌ) ثم سكتت، لظلت النفوس متلهفة متشوقة لمعرفة حال مالك، والوقوف على أمره وخبره، فلما أبانت ذلك تمكنت من النفوس، ومن ثَم أثرت فيهن، وأشبعت فضولهن، ورغبتهن في العلم بحال زوجها، ومن ثَم تستقر أموره وحقيقته في نفوسهن.

وقد أرادت المرأة من هذا الأسلوب تفخيم أمر زوجها، وتعظيم شأنه، وقد تمَّ لها ما أرادت من خلال هذا الأسلوب، فقد توافر كل شيء في كلامها وتضافر لإظهار هذا المعنى وتحقيقه، بدءاً من التصريح باسم زوجها، ثم الاستفهام في قولها (وَمَا مَالِكٌ)؟، وختاماً بقولها (مَالِكٌ خَيْرٌ مِنْ ذَلِكِ) من خلال ما تضمنته هذه الجملة من التصريح باسمه مرة أخرى، والإشارة إليه بالأداة البعيدة، وبما تضمَّنه كلامها من إيجاز القِصر، ومن الإيضاح بعد الإبهام، فتم لها من خلال هذه الأساليب البلاغية مرادها، وحققت غرضها، من مدح زوجها، والثناء عليه.

وحتى تدلل على مكارم زوجها ذكرتْ لهم طرفاً من أخباره في قولها (لَهُ إِبِلٌ كَثِيرَاتُ الْمَبَارِكِ قَلِيلَاتُ الْمَسَارِحِ وَإِذَا سَمِعْنَ صَوْتَ الْمِزْهَرِ أَيْقَنَّ أَنَّهُنَّ هَوَالِكُ)، فذكرت أن له إبلاً، ثم ذكرت حاله مع الإبل، وحال الإبل معه، وقد تمَّ تقديم الجار والمجرور، في قولها (له)، وفي هذا التقديم إشارة إلى عنايتها بأمر زوجها، واهتمامها به، فهو عندها محل العناية والحفاوة، ولذا قدمته عناية بأمره، ورعاية لشأنه، وإشارة ـ كذلك ـ إلى أنه المقدَّم في حياتها، وفي قلبها، فجاء هذا التقديم تأكيداً لهذه المعاني كلها، ودلالة عليها.

وفي تنكير لفظة (إبل) إشارة إلى كثرتها وعظمتها، يدل على كثرتها وصفها بأنها (كَثِيرَاتُ الْمَبَارِكِ قَلِيلَاتُ الْمَسَارِحِ)، ويدل على عظمة الإبل ـ كذلك ـ ذكرها في هذا المقام، مقامِ مدح زوجها، والثناء عليه، ولذا فهي تذكر أعز ما يملك، وأكرمها وأعظمها إلى قلبه.

وفي قولها (كَثِيرَاتُ الْمَبَارِكِ قَلِيلَاتُ الْمَسَارِحِ) محسن بديعي، وهو المقابلة، فقد ذكرت لفظين وما يقابلهما، فذكرت (كَثِيرَاتُ) وضدها وهي (قَلِيلَاتُ)، وذكرت (الْمَبَارِكِ) وهي: موضع نزول الإبل، وحبسها فيه، وذكرت ضدها وهي (الْمَسَارِحِ)، وهو المكان الذي تُطلق فيه لترعى منه، وتكمنبلاغة هذا الأسلوب أنها بينت جميع أحوال هذه الإبل على وجه التفصيل، وأحاطت بها من جميع جوانبها،كما أن في المقابلة مزيداً من التأكيد، ومزيداً من البيان والإيضاح، فإذا كانت هذه الإبل كثيرات المبارك، فسيُعلم حينها أنها قليلات المسارح، حتى لو لم تصرح بذلك، ولكنْ في ذكرها مزيد من الإيضاح، ومزيد من التأكيد، ولحرص المتكلم على إيضاح هذا المعنى، من أجل حضوره في ذهن المخاطب به.

وقد كنَّتْ بقولها (كَثِيرَاتُ الْمَبَارِكِ قَلِيلَاتُ الْمَسَارِحِ) عن كثرة الإبل ـ أولاً ـ؛ لأن في كثرة مباركها كثرة لها[٩٩] ، كما أن فيه كناية ـ كذلك ـ عن كرم زوجها، فقد أمر أن تكون هذه الإبل في مباركها ـ وهو موضع نزولها ـ ترقباً للضيفان، واستعداداً لهم، بلحوم الإبل وألبانها، ولذا فتلزم الإبل مباركها، فلا يرسلها إلى مسارحها إلا قليلاً، ولكنه «يبركهن بفنائه فإذا فاجأه ضيف وجدها حاضرة فيقريه منلحمها ولبنها، ولم يجدها غائبة عنه فيتباطأ فيما يكرمه به مدة طلبها» .[١٠٠]

كما أن قولها (قَلِيلَاتُ الْمَسَارِحِ) تأكيد للمعنى السابق، وإشارة إلى كرمه أيضاً، فهي كناية عن كرمه، وكثرة طروق الضيفان له، ومجيئهم إليه، يدل على هذا أن

إبله (قَلِيلَاتُ الْمَسَارِحِ)، وهذه هي القرينة الدالة على كرم زوجها، وبيان ذلك: أن اليوم الذي يطرقه فيه الضيفان فإن إبله« لا تسرح حتى يأخذ منها حاجته للضيفان، واليوم الذي لا يطرقه فيهأحد أو يكون هو غائباً تسرح كلها، فأيام الطروق أكثر من أيام عدمه، فهي لذلك قليلات المسارح» .(١٠١)

ثم أكدت كرم زوجها بقولها (وَإِذَا سَمِعْنَ صَوْتَ الْمِزْهَرِ أَيْقَنَّ أَنَّهُنَّ هَوَالِكُ)، فذكرت حال زوجها مع ضيوفه، وحفاوته بهم، فذكرت عادته معهم، واستمراره على هذه العادة، وثباته عليها، حتى ألفتها إبله، وتعودت عليها، والمزهر: العود الذي يُضرب به، ويُغنى فيه(١٠٢) ، ومراد المرأة من ذكر ذلك أن تشير إلى« أن زوجها قد عود إبله إذا نزل الضيف به أن ينحر لهم، ويسقيهم الشراب، ويأتيهم بالمعازف، فإذا سمعت الإبل ذلك الصوت علمن أنهن منحورات» .(١٠٣)

ولن تفهم الإبل ذلك وتعتاده إلا مع استمراره، وتكرر حدوثه، وفي ذلك دلالة على كرم زوجها، وأن الكرم فيه خلق تخلقه، وطُبع عليه، لم يكن تكلفاً منه ولا تصنعاً، ولكنه سجية فيه غير محدثة، ولولا ذلك لما عرفت إبله عادته، ولما أيقنت بالهلاك لدى سماعها صوت المزهر، فمن عادة زوجها أنه إذا سمع الغناء، وانتشى، وهبت فيه الأريحية والسخاء، قام بنحر الإبل، وتقديمها لضيوفه، فصارت تلك منه عادة لا تتغير، ولذا فالإبل تتيقن بالهلاك حينها.

وفي استخدام أداة الشرط (إذا) في هذا المقام إشارة إلى هذا المعنى، ودلالة عليه؛ وذلك أن هذه الأداة تأتي في المقامات التي يُتيقن بوقوعها، ويُجزم بحدوثها، فلو كان الأمر متردداً فيه، أو مشكوكاًبوقوعه لجاءت بأداة الشرط (إن)، وفرق كبير بين قولها (وَإِذَا سَمِعْنَ صَوْتَ الْمِزْهَرِ أَيْقَنَّ أَنَّهُنَّ هَوَالِكُ)، وبين قولها ـ لو قالت ـ(إن سمعن صوت المزهر أيقن أنهن هوالك)، وهو فرق دقيق يلحظه البصير بكلام

العرب، الخبير بأساليبها، ومما يؤكد أن الأمر يقين لا شك فيه، وأنه واقع لا محالة قولها (أَيْقَنَّ أَنَّهُنَّ هَوَالِكُ)، ففي لفظة (اليقين) إشارة إلى هذا المعنى.

وفي قولها (أَيْقَنَّ أَنَّهُنَّ هَوَالِكُ) جملة من الأساليب البلاغية الشاهدة بحسن منطقها، وعلو كعبها في الفصاحة والبيان، فمن ذلك قولها (أَيْقَنَّ أَنَّهُنَّ هَوَالِكُ) إذ لم تقل (أيقن بهلاكهن)، ولكنها ذكرت هذا المعنى من خلال الجملة الاسمية (أَنَّهُنَّ هَوَالِكُ) تريد بذلك أن تبرز دلالة الجملة الاسمية في هذا المقام، ومن ثَم توظف هذه الدلالة في الثناء على زوجها، وإثبات كرمه، فمعلوم أن الجملة الاسمية تدل على الثبات والدوام، بخلاف الجملة الفعلية الدالة على التجدد والاستمرار، أرادت من دلالة الجملة الاسمية أن هذا الأمر حقيقة ثابتة لا تتغير ولا تتبدل، فذلك دأب زوجها مع ضيوفه دائماً وأبداً، لا يحول عن ذلك ولا يزول، فهو يظهر الحفاوة البالغة بضيوفه، ويهش في وجوههم ويبش، ويقدم لهم الضيافة الكاملة، ويضرب لهم المعازف، ومن ثَم تسمعها الإبل فتتيقن حينها بالهلاك.

وفي جمعها للفظة (هَوَالِكُ) إشارة ـ كذلك ـ إلى كرم زوجها، فمن دأبه أنه لا ينحر واحدة ولا اثنتين، بل ينحر لهم الكثير، ولذا فإن الإبل كلها تتيقن بالهلاك، كيف لا وهو مالك لكثير منها، فله مناسمه نصيب، ولذا فهو يذبح منها لضيوفه «ذبحَ من لا يخشى الفقر حتى أصبحت إبله الحية ترقب الموت، وتنتظر النحر؛ لِما رأت من ذبح أختها بين الحين والحين» .[(١٠٤)]

وثمة إشارة أخيرة في أسلوبها، في قولها (أَيْقَنَّ أَنَّهُنَّ هَوَالِكُ)، فيصح أن يكون قولها هذا من المجاز العقلي، فقد أسندت اليقين بالهلاك إلى غير فاعله حقيقة، حين أسندت ذلك إلى الإبل، وكيف تتيقن الإبل ذلك وهي بهيمة صماء، لا تدرك ذلك، ولا تحس به؟ ولكن الذي يتيقن ذلك، ويحس به هم الضيوف الذين اعتادوا من هذا

المضياف الكريم أنه ينحر الإبل لضيوفه، ويقدمها لهم، ولكن صح هـذا الإسـناد؛ لأن سماع الإبل للمزهر ((يوافق إهلاكها، ويوقن من يعقل به، أُضيف ذلـك إليهـا))[١٠٥]، ومن ثم كانت البلاغة والمبالغة في هذا الأسـلوب في إسـناد الـيقين بـالهلاك إلى الإبـل نفسها؛ فذلك أدل على كرم زوجها؛ لكون إبله اعتـادت ذلـك منـه وعرفـت عادتـه، فصارت تتفاعل معه، وتحس به وتشعر، وذلك أبلغ في الوصـف كمـا يـذكر القاضـي عياض(ت٥٤٤ هـ)، ويذكر أن ذلكمعروف ومشهور في لغـة العـرب، وسـاق لـذلك كثيراً من الأشعار .[١٠٦]

ثم قالت الحادية عشر، وهي أم زرع، وسُـمي الحـديث بهـا؛ وصـار يُعـرف بحديث أم زرع، وفي هذه التسمية مجاز مرسـل، وعلاقتـه الجزئيـة، فقـد أُطلـق الجـزء، وأُريد منه الكل، وتكمن بلاغـة هـذا المجـاز أن فيـه حفـاوة بـشأن أم زرع، واهتمامـاً بخبرها؛ فكونها تمثل جـزءاً رئيـساً ومهمـاً في هـذا الحـديث، ولـذا كـان لهـا النـصيب الأوفى، والجزء الأكبر منه، فقد ذكرت حال أبي زرع، وكل ما يتعلق به من قريـب أو بعيد.

قالت أم زرع: (زَوْجِي أَبُو زَرْعٍ وَمَا أَبُو زَرْعٍ أَنَاسَ مِنْ حُلِـيٍّ أُذُنَـيَّ وَمَلَـأَ مِنْ شَحْمٍ عَضُدَيَّ وَبَجَّحَنِي فَبَجِحَتْ إِلَيَّ نَفْـسِي وَجَـدَنِي فِـي أَهْـلِ غُنَيْمَـةٍ بِـشِقٍّ فَجَعَلَنِي فِي أَهْلِ صَهِيلٍ وَأَطِيطٍ وَدَائِسٍ وَمُنَقٍّ فَعِنْدَهُ أَقُولُ فَلَا أُقَبَّحُ وَأَرْقُدُ فَأَتَـصَبَّحُ وَأَشْرَبُ فَأَتَقَنَّحُ أُمُّ أَبِي زَرْعٍ فَمَا أُمُّ أَبِي زَرْعٍ عُكُومُهَا رَدَاحٌ وَبَيْتُهَا فَسَاحٌ ابْنُ أَبِي زَرْعٍ فَمَا ابْنُ أَبِي زَرْعٍ مَضْجَعُهُ كَمَسَلِّ شَطْبَةٍ وَيُشْبِعُهُ ذِرَاعُ الْجَفْرَةِ بِنْتُ أَبِي زَرْعٍ فَمَا بِنْتُ أَبِي زَرْعٍ طَوْعُ أَبِيهَا وَطَوْعُ أُمِّهَا وَمِلْءُ كِسَائِهَا وَغَيْظُ جَارَتِهَـا جَارِيَـةُ أَبِـي زَرْعٍ فَمَا جَارِيَةُ أَبِي زَرْعٍ لَا تَبُثُّ حَدِيثَنَا تَبْثِيثًا وَلَا تُنَقِّثُ مِيرَتَنَا تَنْقِيثًا وَلَا تَمْلَأُ بَيْتَنَـا تَعْشِيشًا قَالَتْ خَرَجَ أَبُو زَرْعٍ وَالْأَوْطَابُ تُمْخَـضُ فَلَقِـيَ امْـرَأَةً مَعَهَـا وَلَـدَانِ لَهَـا

كَالْفَهْدَيْنِ يَلْعَبَانِ مِنْ تَحْتِ خَصْرِهَا بِرُمَّانَتَيْنِ فَطَلَّقَنِي وَنَكَحَهَا فَنَكَحْتُ بَعْدَهُ رَجُلًا سَرِيًّا رَكِبَ شَرِيًّا وَأَخَذَ خَطِّيًّا وَأَرَاحَ عَلَيَّ نَعَمًا ثَرِيًّا وَأَعْطَانِي مِنْ كُلِّ رَائِحَةٍ زَوْجًا وَقَالَ كُلِي أُمَّ زَرْعٍ وَمِيرِي أَهْلَكِ قَالَتْ فَلَوْ جَمَعْتُ كُلَّ شَيْءٍ أَعْطَانِيهِ مَا بَلَغَ أَصْغَرَ آنِيَةِ أَبِي زَرْعٍ)، وكلامها هذا بحاجة إلى طول تأمل، وإنعام نظر؛ وذلك لِمَا تضمنه من نكت بيانية، وأساليب بلاغية، ولذا فسيطول الوقوف معه، والحديث عنه، وهي تستحق هذه الوقفة، وتلك الإشادة، وقد أشار القاضي عياض(ت٥٤٤ هـ) إلى ما تضمنه أسلوبها من بلاغة، يقول:« وأنت إذا تأملت كلام أم زرع وجدته مع كثرة فصوله، وقلة فضوله مختار الكلمات، واضح السمات، بيّن القسمات، قد قُدرت ألفاظه قيس معانيه، وقُررت قواعده، وشُيدت مبانيه، وجُعلت لبعضه في البلاغة موضعاً، وأودعته من البديع بدعاً». [١٠٧]

وقد استفتحت كلامها بقولها: (زَوْجِي أَبُو زَرْعٍ فَمَا أَبُو زَرْعٍ)، والاستفهام هنا: للتعظيم، أي إنه شيء عظيم، ومهما قلت فلن أوفيه حقه، ومهما كان سعة أفقكن، وقوة تفكيركن فلن تحطن به، ولن تقدرنه قدره؛ لأنكن لم تعهدهن أحداً مثله، ولم تعرفن من حذا حذوه[١٠٨] ، ولذا كان سبيلها في ذلك الاستفهام بقولها (فَمَا أَبُو زَرْعٍ) بغية تعظيمه في نفوسهن، وفي ذلك تمهيد منها لذكر محاسنه، وتعداد مناقبه، ولا يُعظم من الناس إلا من كان جديراً بهذا التعظيم، قميناً به، وكذلك كان أبو زرع، ولذا شرعت في ذكر أوصافه، وبيان أحواله معها، وكلها دلائل على عظمته، مشيرة ـ كذلك ـ إلى مكانته ورفعته.

وأما قولها (أَنَاسَ مِنْ حُلِيٍّ أُذُنَيَّ)، فذلك كناية منها على كثرة ما ألبسها أبو زرع من الحلي، وعلى كثرة ما أهداها من الذهب وغيره مما جرت عادة النساء أن تتحلى به[١٠٩] ، وقد عبرت لفظة (أناسَ) أدق تعبير عن هذه الكناية وإظهارها؛

وذلك أنها مأخودة من النَّوْس، وهي الحركة والتدلي والاضطراب، فقد ثقلت أذناها بالحلي، حتى تدلت واضطربت، وفي تحرك أذنيها من حلاها واضطرابها إشارة إلى كثرتها؛ وذلك الذي أرادت أن تعبر عنه، وأن تقوله من خلال هذه الكناية، وقد أشار القاضي عياض إلى هذه الكناية وبلاغتها، يقول:《فعبرت عن كثرة ما حلاها به بأحد توابعه، وهو صوت حركته، ولا يكون ذلك إلا مع كثرته، ولو قالت: (حلَّى أذني)، لم يقع من المبالغة، وحسن اللهجة موقع قولها (أَنَاسَ مِنْ حُلِيٍّ أُذُنَيَّ)》. [١١٠]

وقدمت الجار والمجرور في قولها (مِنْ حُلِيٍّ)، وفيه إشارة إلى أهمية المقدَّم، ومكانته في نفوس النساء خاصة، ولذا بادرت في بيان ما حلاها به، وكشفته فأشارت إلى الحلي التي تتحلى بها المرأة وتتزين، وفي هذا التقديم كشف له وإيضاح، بل مسارعة في بيانه وكشفه، وكأن فيه ـ من طرف خفي ـ إغاظة لهؤلاء النسوة، بإخبارهن بذلك، وبذكر حظوتها من أبي زرع، ومحبته لها بأن أغدق عليها، بل أغرق أذنيها، وأثقلها بالحلي.

وفي قولها (وَمَلَأَ مِنْ شَحْمٍ عَضُدَيَّ) مجاز مرسل، وعلاقته الجزئية، فقد أطلقت الجزء ـ وهو العضد ـ وأرادت جسمها كله، وفي ذكرها للعضد، واقتصارها عليه إشارة إلى أهميته، ودلالته ـ كذلك ـ على الجسد كله؛ وذلك أن العضد إذا سمن يسمن معه الجسد كله، وسبب الاقتصار على العضد من بين سائر الأعضاء؛ لأنه أقرب ما يلي بصر الإنسان من جسده، وأول ما يظهر فيه أثر السمنة[١١١]، ولذا عبرت بهذا الجزء، وإن كانت أرادت بذلك جسدها كله،فمرادها أن تقول: إنه سمنني، وملأ بدني شحماً، ولكنها عبرت عن ذلك بأوجز عبارة وأبلغها، والمعنى: أن أم زرع وجدت في بيت زوجها الخير والنعيم بأنواعه، فرتعت فيه، ووجدت أثره في جسدها كله، ولذا فقد امتلأ جسمها، وظهرت عليه أمارات النعمة والثراء، فقد امتلأ جسمها

من الشحم واكتنز، وفي تقديمها للجار والمجرور في قولها (مِنْ شَحْمٍ) إشارة إلى هذا الامتلاء، وذلك الاكتناز، فقد بلغ جسمها غايته من الامتلاء، وصار لا مزيد عليه من النعمة التي تعيش فيها، في كنف أبي زرع.

كما أن قولها (وَمَلَأَ مِنْ شَحْمٍ عَضُدَيَّ) يُعدُّ – كذلك – من الكناية، فقد كنَّت عن الحياة الكريمة التي تعيشها مع أبي زرع، وعن العيش الرغيد التي تنعم به في داره، وقد ظهر أثر هذه النعمة، وذلك الثراء على بدنها، فقد اكتنز جسمها، وقد ظهر ذلك جلياً في شحم عضدها.

وأحب أن أنبه أن الأسرار البلاغية لا تتزاحم، ولا يعارض بعضها بعضاً، بل تتعايش معاً، ولا غرابة أن يدل القول الواحد على عدة أساليب بلاغية، وذلك دلالة على تمكن القائل، وأنه على قدر كبير من الفصاحة والبلاغة، وكذلك كانت أم زرع في حديثها عن أبي زرع، وقد جرتْ بلاغتها على لسانها في تعبيرها عن حبها لأبي زرع، وفي إفصاحها عن مكانته في نفسها، ومكانتها في نفسه.

ثمذكرت بعد ذلك النقلة التي نقلها أبو زرع إليها، والمفارقة التامة لما كانت عليه مع أهلها، فقد نقلها من الفقر إلى الغنى، ومن الضيق إلى السعة، ومن الشقاء إلى النعيم، ومن الحزن إلى السعادة، وقد عبرت عن ذلك كله بقولها (وَجَدَنِي فِي أَهْلِ غُنَيْمَةٍ بِشِقٍّ فَجَعَلَنِي فِي أَهْلِ صَهِيلٍ وَأَطِيطٍ وَدَائِسٍ وَمُنَقٍّ فَعِنْدَهُ أَقُولُ فَلَا أُقَبَّحُ وَأَرْقُدُ فَأَتَصَبَّحُ وَأَشْرَبُ فَأَتَقَنَّحُ)، وقد عبرت عن فقرها، وفقر أهلها أدق تعبير وأصدقه، فجاءت ألفاظها ناطقة بذلك الفقر كاشفة له، فأشارت إلى أهلها أنهم أهل غنم، وقد صحبتْ الغنمُ الفقراء، فكانت عنواناً لهم، ودليلاً عليهم، وفي تصغير لفظة (غُنَيْمَةٍ) وإفرادها إشارة واضحة إلى هذا الفقر، بل هو الفقر المدقع، ولا يخفى ما تضمنه التصغير من تحقير لعدد الغنيمات، ومن تقليل لقيمته وشأنه، وقد ازداد هذا الفقر وضوحاً وظهوراً بقولها (بِشِقٍّ)، فهم فيمكان بعيد متوارٍ عن الأنظار، لا يبلغونه

إلا بشق الأنفس، وفي ذلك إشارة منها أنهم في شظف من العيش، فهم يعيشون الفقر، ويصارعون الحياة من أجل البقاء فيها، والتأقلم معها، هكذا كانت أم زرع، وهكذا عاشت، وعاش أهلها، ولكن تغيرت حياتها لما تزوجت أبا زرع، وتبدلت معيشتها، فنقلها من تلك الحياة، وجعلها من أهل الغنى والثراء، ومن أهل الخيل والأطِيطٍ، ومرادها بذلك: الخيول والإبل، وقد كانت الإبل والخيل – ولا زالت – رمزاً للغنى والثراءورمزاً – كذلك – للشرف والعلياء، وكذلك كان أبو زرع، فجعل أم زرع تنعم في هذا الغنى، وتعيش في هذا الثراء.

وفي حرف الجر (في) في قولها (فَجَعَلَنِي فِي أَهْلِ صَهِيلٍ وَأَطِيطٍ وَدَائِسٍ وَمُنَقٍّ) بدلالته على الظرفية والوعاء، فيه استعارة تبعية بالحروف، فقد استُعيرت هذه الظرفية ـ التي هي ارتباط حاصل بين الظرف والمظروف ـ لانغماس أم زرع في هذا النعيم، بجامع الإحاطة والاحتواء في كل، ودُلَّ على هذه الاستعارة بحرف الجر (في) بدلالته على الظرفية، وتكمن بلاغة هذا الاستعارة أن فيها بياناً لشدة تمكن أم زرع من هذا النعيم، وانعماسها فيه، فقد أحاط بها هذا النعيم من كل جانب إحاطة السوار بالمعصم، ومن هنا تتجلى بلاغتها، وحسن منطقها في التعبير عن هذا الغنى، فثمة فرق بين قولها (فَجَعَلَنِي فِي أَهْلِ...) وبين قولها ـ لو قالت ـ: نقلني إلى حياة الغنى، وصرت معه غنية وثرية، فشتان شتان، ويعود ذلك إلى بلاغة هذه الاستعارة، وقدرة أم زرع في توظيف دلالتها عن مرادها، والإبانة عنه.

وفي قولها (فَعِنْدَهُ أَقُولُ فَلَا أُقَبَّحُ وَأَرْقُدُ فَأَتَصَبَّحُ وَأَشْرَبُ فَأَتَقَنَّحُ) إشارة إلى مكانتها في نفسه، وحبه لها، وإلى الترف والثراء الذي تعيشه في كنف أبي زرع، وفي بناء الفعل (أُقَبَّحُ) للمجهول دلالات في هذا المقام، ففيه إشارة إلى مكانة أم زرع من قلب أبي زرع، وأنها نالت عنده حظها وحقها من حب أبي زرع لها، وتقديره كذلك، بل تجاوز ذلك أبا زرع إلى غيره من أهل الدار جميعاً، ولذا فهم جميعاً لا يقبحون قولها،

ولا يردون طلبها، ولا يسفهون رأيها، فلا أحد يجرؤ على تقبيح قولها في حضرة أبي زرع، وفي غيبته كذلك، ولذا فهي السيدة المطاعة، فكلمتها مسموعة، ورأيها نافذ على الجميع، وعلى سائر أهل الدار، ولو كان ذلك مقصوراً على أبي زرع، لذكرت الفعل مبنياً للمعلوم، ولقالت (فلا يقبحني).

وفي قولها (وَأَرْقُدُ فَأَتَصَبَّحُ) كناية ـ كذلك ـ عن الترف الذي تعيشه أم زرع في بيت زوجها، ولذا فهي تنام الصبحة ، وهي نوم أول النهار، وكونها تظل نائمة إلى هذا الوقت فذلك إشارة منها إلى وجود من يكفيها أمر بيتها من الخدم، فهم الذين يقضون حوائجها، ويقومون بإصلاح بيتها وترتيبه، ولذا فهي مكفية المؤونة، معفية من المهنة والخدمة، كما أنها مدللة مترفة ذات خدم وحشم، فقد أحاطوا بها، وكفوها أمرها، ولذا فهيتأخذ حظها من النوم، وتستغرق فيه، فهي ترقد فتتصبح، ولا تستيقظ من أول النهار.

وقد وردت هذا الكناية (نؤوم الضحى) في أشعار العرب كثيراً، وأشاروا بها إلى ترف الفتاة، والنعيم الذي تعيش فيه، وأنها مكفية بغيرها ممن يقوم بمصالحها، ويقضي حوائجها، ومن ذلك قول امرئ القيس(١١٢):

وتضحي فتيت المسك فوق فراشهانؤوم الضحى لم تنتطق عن تفضل

وورد ذلك في قول الحطيئة(١١٣) :

ولا تأرَّى ما في القدر ترصده ولا تقوم بأعلى الفجر تنتطق

أي لا تقوم في هذا الوقت المبكر، ولا تشد نطاقها للخدمة، في مكفية، وقد أشار السكاكي(ت ٦٢٦هـ) إلى الكناية في قولهم (فلانة نؤوم الضحى)، يقول: «لينتقل منه إلى ماهو ملزومه، وهو كونها مخدومة غير محتاجة إلى السعى بنفسها في

إصلاح المهمات، وذلك أن وقت الضحى وقت سعي نساء العرب في أمر المعاش، وكفاية أسبابه، وتحصيل ما يُحتاج إليه فيتهيئة المتناولات، وتدبير صلاحها، فلا تنام فيه من نسائهم إلا من تكون لها خدم ينوبون عنها في السعي لذلك»[١١٤] ،وكذلك كانت أم زرع في بيت زوجها.

ثم ذكرت مظهراً آخر من مظاهر النعيم والثراء الذي وجدته في بيت زوجها، وهو قولها (وَأَشْرَبُ فَأَتَقَنَّحُ)، وذلك كناية منها ـ أيضاً ـ عن كثرة الخير لديها، وعن رغد عيشها، وكثرة النعمة التي أصبحت فيها، كما كنَّت بذلك عن عزتها ومكانتها من أبي زرع، ولذا فهي تزهو به وتفتخر، وقد عبرت عن ذلك كله بقولها(وَأَشْرَبُ فَأَتَقَنَّحُ)، وتقصد بذلك أنها تشرب ثم تشرب حتى تبلغ الري، وحتى لا تجد له مصرفاً ولا مساغاً، مأخوذ ذلك من الناقة القامح وهي التي ترد الحوض، فلا تشرب، وترفع رأسها رياً.[١١٥]

ولم يقف مدح أم زرع عند أبي زرع، بل تجاوز ذلك إلى مدح كل من يمت له بصلة وسبب، وبيان حاله، وذكر أوصافه، وقد بدأت بأم زرع، وذلك في قولها (أُمُّ أَبِي زَرْعٍ فَمَا أُمُّ أَبِي زَرْعٍ عُكُومُهَا رَدَاحٌ وَبَيْتُهَا فَسَاحٌ)، والعُكُوْم: الأحمال التي تُجمع فيها الأمتعة، فهي تصف عُكُوْمَها بأنها رَدَاح أي: كبيرة وكثيرة، فهي تصفها بالثقل؛ إشارة لكثرة ما فيها من الأمتعة والثياب والخيرات.[١١٦]

وأما بيتها فهو فَسَاح، أي: كبير، وذو فناء واسع، فهي تصفها بالغنى، وكثرة الخير، ورغد العيش، وبسعة فنائها وكبره، ويُعدُّ هذا القول كناية إلى الكرم، والبر بنازل هذا البيت، والحفاوة التامة به، يدل على ذلك قول العرب:«فلان رحب المنزل، ولا يريدون سعة قطره، بل كثرة خيره، ووفور بره».[١١٧]

ثم تأخذ بعد ذلك في وصف ابن أبي زرع، فتقول: (ابْنُ أَبِي زَرْعٍ فَمَا ابْنُ أَبِي زَرْعٍ مَضْجَعُهُ كَمَسَلِّ شَطْبَةٍ وَيُشْبِعُهُ ذِرَاعُ الْجَفْرَةِ)، فتصفه بالدقة والنحافة، وأنه مهفهف القد، ضامر البطن، تصفه بذلك بأبلغ عبارة وأوجزها، فتذكر أن مضجعه ـ وهو المكان الذي ينام فيه ـ من الصغر بمكان، وحتى يتضح مرادها، ويتبين مقصودها ذكرته من خلال أسلوب التشبيه في قولها (كَمَسَلِّ شَطْبَة)، ومرادها بذلك: السيف إذا سُل من غمده[118]، تريد من خلال هذا التشبيه أن تبين قدر سعة مكان نومه، وهذا التشبيه كناية عن حسن خلقته، وجمال هيئته، فهو ليس بطيناً أو سميناً، حسبك دليلاً على حسن قامته، وجمال هيئته أن شبهته بالسيف، وقد شبهت العرب الرجال بالسيوف كثيراً، ورد ذلك في أشعارهم وأخبارهم، من ذلك قول الأعشى[119]:

ويصبح كالسيف الصقيل إذا غداعلى ظهر أنماط له ووسائدا

والغرض من هذا التشبيه: إما الإشارة لخشونة الجانب، وشدة المهابة، وإما أن يكون ذلك لجمال الرونق، وكمال اللألاء، وإما أن يكون ذلك لكمال الصورة في الاعتدال، وشدة الاستواء[120]، وقد يكون ذلك كله مرادا.

ولم يقف وصفها له عند هذا الحد، فذكرت عنه أنه (يُشْبِعُهُ ذِرَاعُ الْجَفْرَةِ)، ومرادها بالجفرة: الأنثى، ولد الماعز، والذكر: جَفْر[121]، وذلك كناية منها عن قلة الأكل، فهو ضَرْبُ اللحم قليله، دقيق الخصر، يسد رمقه بالأقل القليل من اللحم، ولا يأكل أكل الجشع النهم، رغم توافره، وسهولة حصوله، ولكنه أخذ نفسه بقلة الأكل، وأقنعها فقنعت، وألزمها فلزمت، ولذا فهي تمدحه بذلك، وتشيد به، والعرب تمدح الرجل بقلة الطعام والشراب.

ومن الغريب أن تقول أم زرع هذا الوصف الجميل، والثناء العطر لابن أبي زرع، وهو من زوجة غيرها، ومعلوم أن الزوجات يضقن ذرعاً بأبناء غيرهن، ولكن

حبها لأبي زرع أنساها ذلك كله، بل جعلها تنظر إليهم نظرة حب وود، وتقدير وإكبار، وتضفي عليهم أبلغ النعوت، وجميل الصفات .

ثم تأخذ في وصف ابنة أبي زرع فيقولها (بِنْتُ أَبِي زَرْعٍ فَمَا بِنْتُ أَبِي زَرْعٍ طَوْعُ أَبِيهَا وَطَوْعُ أُمِّهَا وَمِلْءُ كِسَائِهَا وَغَيْظُ جَارَتِهَا) فذكرت عنها أحسن الصفات، وأجمل الأخلاق، بأقصر الألفاظ وأبلغها، فذكرت أنها (طَوْعُ أَبِيهَا وَطَوْعُ أُمِّهَا) فهي في غاية البر بهما، والإحسان إليهما، ولذا فهي رهن إشارتهما، وفي لفظة (طَوْعُ) تعبير دقيق عن هذه الطاعة، وتصوير لها أيما تصوير، وقد عبرت بهذه الألفاظ عن صفاتها الخُلقية، فهي – في هذا – الغاية التي لا مزيد عليها، فحسبك من أخلاقها أنها طوع أبيها، وطوع أمها، وبعد أن فرغت من الإشارة إلى صفاتها الخُلقية أشارت إلى صفاتها الخَلقية، فذكرت أنها (مِلْءُ كِسَائِهَا)، وذلك كناية منها عن امتلاء جسدها، وحسن صورتها، فهي ممتلئة الجسم، كثيرة اللحم، وقد عبرت عن ذلك بامتلاء كسائها، ولا يكونذلك إلا «لعظم جسمها،وكمال شخصها، وكثرة لحمها، ونعمة جسمها، وهذا مما يُمدح به النساء، ويُدم بضده». [١٢٢]

وقد جمعت أوصافها الحسنة وأجملتها بقولها (وَغَيْظُ جَارَتِهَا) وتقصد بذلك: ضرتها؛ إذ يُغيظها ما ترى من حسنها وجمالها، ومن عفتها وأدبها، ولو أردنا أن نفصل ما أجملتْ في هذه العبارة، وأن نبين ما أبهمت لطال بنا المقام، ولما وجدنا إلى ذلك سبيلاً، ولذا فإن هذه العبارة من إيجاز القِصَر، بل هي الغاية من الإيجاز، فقد جمعت محاسنها كلها الخَلقية والخُلقية، وأشارت إلى أنها بلغت بتلك المحاسن غايتها، وتربعت على عرشها مما جعل جارتها تحسدها، وتغتاظ من كمال خُلقها، وكمال صورتها، وقد أشار القاضي عياض إلى الإيجاز في هذه العبارة، وإلى بلاغته، يقول:«ثم جمعت كل ثناء، وطوت كل مدح، وأدمجت كل حسن من خُلق وخَلق تحت لفظين بقولها (وَغَيْظُ جَارَتِهَا)، فهو من باب الإرداف، وإن شئت قلت: من باب الوحي والإشارة، فقد

ذهبت بهذه اللفظة من الإيجاز كل مـذهب، وأتـت فيهـا مـن البلاغـة والمبالغـة بكـل معجز)). [١٢٣]

ولم يقتصر حديثها عن أهل أبي زرع، بل تجاوزه إلى جاريته، فذكرت حالهـا، ووصفت شأنها، ومدحتها بقولها: (جَارِيَةُ أَبِـي زَرْعٍ فَمَـا جَارِيَـةُ أَبِـي زَرْعٍ لَـا تَبُـثُّ حَدِيثَنَا تَبْثِيثًا وَلَـا تُنَقِّـثُ مِيرَتَنَـا تَنْقِيثًـا وَلَـا تَمْلَـأُ بَيْتَنَـا تَعْشِيـشًا)، تـصفها بالأمانـة، والأخلاق الحسنة، وقد كنَّت بقولها (لَا تَبُثُّ حَدِيثَنَا تَبْثِيثًا) عن أمانتها، فهي أمينة على السر، حافظة له، كما أنها أمينة ـ كذلك ـ على الطعام، ولذا فمن أمانتها أنها لا تـذيع أخبارهم للآخرين، ولا تفشي أسرارهم، وذلك مرادها بقولها(لَا تَبُثُّ حَـدِيثَنَا تَبْثِيثًـا)، كما أنها حريصة على طعامهم، أمينة عليه، حافظة له أتم المحافظة، فهي لا تفـسده، ولا تأخذ منه، وتذهب به إلى غيرهم، وقد كنَّت بقولها (وَلَا تَمْلَأُ بَيْتَنَا تَعْشِيشًا) عـن شـدة نظافتها، وكثرة تعهدها للبيت بالنظافة والترتيب . [١٢٤]

والمتأمل لكلام أم زرع يجد أنها تستفتح حديثها بالاستفهام في قولها (زَوْجِـي أَبُو زَرْعٍ فَمَا أَبُو زَرْعٍ)، ثم تأخذ في وصفه وبيانه، وقد تكرر ذلك منهافي كل موضع، في بداية حديثها عن أقارب أبي زرع كلهم، حدث ذلك منها في خمسة مواضـع، لـدى حديثها عن أبي زرع، وعن أمه، وعن ابنه، وعن بنته، وعن جاريته، فقـد اسـتخدمت هذا الأسلوب وما حادت عنه، وكررته كثيراً، وقـد تـضمن أسـلوبها هـذا كـثيراً مـن الأساليب البلاغية، فسأشير إليها، وإلى بلاغتها، وأثرهـا في الدلالـة علـى مقـصودها، فمن تلك الأساليب:

أولاً: الاستفهام، والغرض منه التعظيم والتعجب، ولذا فهـي ـ مـن خـلال أسلوب الاستفهام ـ تعظم أبا زرع، وترفع من شأنه، كما أنها تتعجب ـ كـذلك ـ مـن جميل أوصافه، واجتماعها فيه، ولا يخفى أن لأسلوب الاستفهام شأناً رفيعـاً، كمـا أن

له أثراً في النفوس حميداً، فكيف إذا تـضمن التعجـبَ والتعظـيمَ؟ لا شـك أنـه قيمتـه متضاعفة، وأثره ـ كذلك ـ متزايد في النفوس، ولذا فهو يؤثر فيها أثراً بالغاً وبليغاً.

ثانيا: التوضيح بعد الإبهام: فقد أجملت أولاً أحوالهم وأبهمتهـا، ثـم فـصلتها وبينتها، ولا يخفى أن التوضيح بعد الإبهام، والتفصيل بعد الإجمال من مقاتـل البيـان، وسرّ من أسراره، يلجأ إليه البليغ حين يـضنُّ بخـبره، ويهـتم بـه، ولـذا فهـو لا يلقيـه ابتداء؛ خشية أن تغفل عنه النفوس، ولكنه من خلال هذا الأسلوب يمهد لـه، ويجعـل النفوس مقبلة عليه، متلهفة متشوقة لمعرفته، والإحاطة به، حينها يـذكره والنفـوس بـه متعلقة، ولذا فهو يستقر أفضل استقرار، ويتمكن فيها أفضل تمكين، فلا يغادرهـا بـل يستقر في أعماقها، كيف لا وقد تشوقوا لمعرفته، وتلهفوا لسماعه وذكره؟!

ثالثاً: الإظهار في مقام الإضمار، وهو طريق من طرق الإطناب، فقـد كـررت كنية أبي زرع مع تقدم الإشارة إليها، فكان حقها الإضـمار، ولكنهـا أظهـرت ذلـك؛ تلذذاً بذكره، وتخليداً لذكراه، وإشارة إلى حبها الدفين في قلبها، وإلى مكانته السامقة في نفسها التي عجزت الأيام وصروفها من أن تنال منه، أو أن تخفيـه، أو أن تكونـسبباً في نسيانها له،أو تغيرها عليه.

ومن المعلوم أن الإنسان حين يحـب شـيئاً فإنـه يكثـر مـن ذكـره، والتـصريح باسمه، ومن ذلك قول الحطيئة (١٢٥):

ألا حبذا هندٌ وأرض بها هندُ وهندٌ أتى من دونها النأي والبعدُ

فقد كرر اسم هند كثيراً إشارة إلى حبه لها، وشدة تعلقه بها، وولوعه بـشأنها وخبرها، ولا غضاضة عليه في ذلك، بل ذلك البلاغة بعينها، ولذا فهو لم يرَ في تكريـر اسمها عيباً، وكذلك فعلت أم زرع مع أبي زرع، فقـد كـررت كنيتـه كـثيراً، وذكرتهـا مظهرة دون إضمارها، إشارة منها إلى عظمته في نفسها، وتلـذذاً بـذكره، فهـي تجـد في كنيته طعماً حلواً في لسانها، كما أن ذلك دليل على حبها له، ومكانته فينفسها.

وثمة أمر آخر في كلام أم زرع، وهو: أن حديثها عن أقارب أبي زرع – بدءاً بأمه، ونهاية بجاريته– ليس من الاستطراد الذي لا غرض فيه، أو الحشو الذي لا فائدة منه، بل حديثها عنهم من البلاغة، ومن الإطناب المحمود المتضمن أغراضاً بلاغية، كما أن له مقاصد سعت أم زرع إلى تحقيقها، والوصول إليها، ولعل من ذلك: التلذذ بذكر المحبوب، وإطالة الحديث عنه، بذكر كل من يمت له بصلة أو سبب، ويذكر البلاغيون شاهداً في مثل ذلك، وهو قوله ـ تعالى ــ : ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَىٰ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ ﴾ {طه: ١٧ـ ١٨}، يذكر البلاغيون هذا الشاهد في باب الذكر في بيان أسراره البلاغية، وبيان ذلك: أن الإجابة تقف عند قوله (عصاي)، فلو أجاب بذلك لتم المراد، واتضح المقصود، ولكن موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ ما اكتفى بقوله (عصاي) في الإجابة، بل ذكر المسند إليه (هي) مع أن في السؤال غنية عنها، ودلالة عليها، ثم ذكر أغراض العصا – وما سُئل عن ذلك – وأخذ في تعدادها في قوله ﴿ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي ﴾، فذكر من أغراضها ما استحضره وقتها، ولكن رغبة منه في إطالة الحديث، ذكر قوله ﴿ وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ ﴾؛ ذلك ليطول الحديث بينهما، وما هو بملوم في ذلك، فقد ذكر الله ـ عزَّ وجل ـ ذلك عنه، وجعلها في آيات تُتلى إلى يوم القيامة؛ لنقتدي بها، ونقتفي أثرها، ونستلهم منها الدروس البيانية والتربوية.

وكذلك حال أم زرع مع أبي زرع، فقد أحبته، ولذا أخذت في ذكره، وبسط الحديث عنه، وعن كلمن يمت له بصلة أو سبب.

ثم شرعت أم زرع بعد ذلك في ذكر زواج أبي زرع بغيرها، وتطليقه لها، في قولها (خَرَجَ أَبو زَرْعٍ وَالْأَوْطَابُ تُمْخَضُ فَلَقِيَ امْرَأَةً مَعَهَا وَلَدَانِ لَهَا كَالْفَهْدَيْنِ يَلْعَبَانِ مِنْ تَحْتِ خَصْرِهَا بِرُمَّانَتَيْنِ فَطَلَّقَنِي وَنَكَحَهَا)، ولقد عبرت بهذه الألفاظ عن كثير من المعاني، كما تضمنت كثيراً من الحوادث المهمة في حياة أم زرع، بدءاً من

خروجه من عندها إلى زواجه بغيرها، كما أشارت ـ كذلك ـ إلى الأسباب التي جعلته يطلقها، والأسباب التي جعلته يتزوج بتلك المرأة، عبرت عن ذلك كله بأوجر عبارة وأبلغها، فقد تضمن قولها (وَالْأَوْطَابُ تُمْخَضُ) الإشارة إلى وقت خروج أبي زرع، فقد خرج في أفضل الأوقات وأحسنها، في الزمن الخصب، وهو وقت استقبال الربيع، فقد طاب الزمان مع المكان، وكثرت فيه الخيرات والأرزاق، وقد أشارت إلى ذلك بأن الأوطاب تُمخض، وتقصد بالأوطاب: وعاء اللبن(١٢٦)،وقد دل على كثرة هذا اللبن قولها (وَالْأَوْطَابُ تُمْخَضُ)، فقد تضمن أسلوبها الإشارة إلى هذا المعنى، والدلالة عليه، يتجلى ذلك من خلال ما يلي:

أولاً: من إيحاء جمع لفظة (الْأَوْطَابُ) فإن جمعها يقتضي كثرتها، وتنوعها، فهم لا يمخضون واحداً ولا اثنين، وإنما يمخضون أوطاباً كثر.

ثانياً: من دلالة بناء الفعل (تُمْخَضُ) للمجهول، فقد بُني للمجهول؛ لتعدد فاعله، فلديهم عدد من الخدم والعبيد يقومون بهذا العمل، وكثرة الخدم دليل على كثرة الأوطاب الدالة على كثرة الخير، وغزارة اللبن.

ثالثاً: لفظة (تُمْخَضُ) حينما جاءت جملة فعلية، فقد تجدد حدوث هذا الفعل، واستمر وقوعه مرة بعد أخرى؛ دلالة على كثرة اللبن، ولذا فهو يُشرب عندهم صريحاً ومخيضاً .

ولذا فكأن أم زرع من خلال هذه الجملة (وَالْأَوْطَابُ تُمْخَضُ) تنكر على أبي زرع خروجه من بيته في هذا الوقت المبكر من النهار، فقد توجست أم زرع خيفة من الخروج في هذا الوقت، وقد كان خوفها في محله، فقد ترتب على ذلك رؤيته لتلك المرأة، ومن ثَم الزواج بها، وتطليقه إياها، .

كما تضمن قولها (وَالْأَوْطَابُ تُمْخَضُ) الإشارة إلى السبب التي جعل المرأة على تلك الهيئة التي رآها أبو زرع عليها، التي أشارت إليها بقولها (فَلَقِيَ امْرَأَةً مَعَهَا وَلَدَانِ لَهَا كَالْفَهْدَيْنِ يَلْعَبَانِ مِنْ تَحْتِ خَصْرِهَا بِرُمَّانَتَيْنِ)، فكأن هذه المرأة تعبت من مخض اللبن، فاستلقت لتستريح، فرآها أبو زرع على هذه الهيئة، فأُعجب بها، ومن ثم تزوجها. (١٢٧)

وقد وصفت أم زرع تلك المرأة وصفاً دقيقاً وأميناً كذلك، كما تضمن وصفها لها كثيراً من الإشارات والدلالات التي جعلت أبا زرع يقدم على الزواج بها، فقد ذكرت أن لها ولدين كالفهدين، وفي ذكر الولدين هنا إشارة إلى الباعث الذي حمل أبا زرع على الزواج منها، ومرد ذلك إلى رغبة العرب في الأولاد، وفي الذكور خاصة، فقد كانوا يرغبون بالنساء المنجبات النجيبات. (١٢٨)

ولقد أكدت أم زرع جمال هذين الولدين، وحسن صورتهما من خلال التشبيه في قولها (كَالْفَهْدَيْنِ)، فقد وضحت من خلال هذا التشبيه جمالهما، وحسن صورتهما، فقد رأى أبو زرع فيها مخايل النجابة، وعلامات الذكاء والدهاء، ولذا علق فؤاده بهما، ورغب أن يكون له أولاد مثلهما، ولذا تزوج أمهما.

وقد كان جمال هذين الولدين من جمال أمهما، وامتداداً له، وقد أشارت أم زرع إلى جمالها، وحسن جسمها، بقولها (كَالْفَهْدَيْنِ يَلْعَبَانِ مِنْ تَحْتِ خَصْرِهَا بِرُمَّانَتَيْنِ) فأشارت من خلال هذه الألفاظ إلى صغر سنها، فهي كعوب لعوب، قد نهد صدرها، يدل على ذلك تشبيه نهديها بالرمانتين؛ فذلك إشارة إلى صغر سنها، وأنها بعد لم تترهل، حتى تتدلى ثدياها، وتتكسر. (١٢٩)

كما تضمن وصفها الإشارة إلى اشتداد خلقها وتماسكه، وحسن مظهرها، فقد ذكرت أنها ذات كفل عظيم، وجسم مكتنز، وفي ذلك إشارة إلى أنها مترفة

مُنعَّمة، من بيت ثراء ودلال، فقد تربت في النعمة، ونشأت فيها، فظهر ذلك جلياً في حسن صورتها، وجمال ولديها، ولذا علق أبو زرع بها، ورغب فيها، ومن ثم أقدم فتزوجها، وطلق أم زرع.

وقد أشارت إلى هذا الأمر بقولها (فَطَلَّقَنِي وَنَكَحَهَا)، وفي قولها هذا محسن بديعي، وهو الطباق، فقد جمعت بين لفظين متضادين، وهما: الطلاق، والنكاح، وتتجلى بلاغة هذا المحسن البديعي أنها عبرت من خلاله، وباختصار شديد عن حياتها وما آلت إليه، وعن حياة أبي زرع مع زوجته الثانية، فقد أحاطت من خلال هذا الطباق بكل تفاصيل حياتها مع أبي زرع، كما ذكرت نهايتها كذلك، وقد أجملتها إجمالاً شديداً، فقد اختصرتها في كلمة واحدة، في قولها (فَطَلَّقَنِي)، وما أقسى هذه الكلمة، وما أشد وقعها على أم زرع، وإنها لتجد مرارتها في لسانها وهي تنطق بها، كما تجد كذلك ألمها في قلبها وهي تتذكرها، ولكن هذا ما حدث ووقع، وهي تروي لهن الأحداث، وتذكر لهن قصتها، بكل دقائقها وتفصيلاتها، وبكل صدق وأمانة، فقد تعاهدن على ذلك وتعاقدن، وهاهي تدفع ضريبة ذلك الحوار الصريح مع هؤلاء النسوة .

وكما أن أبا زرع طلقها، وتزوج غيرها فكذلك فعلت أم زرع، فقد تزوجت بآخر، وهاهي تروي خبره، وتذكر حالها معه، تقول: (فَنَكَحْتُ بَعْدَهُ رَجُلًا سَرِيًّا رَكِبَ شَرِيًّا وَأَخَذَ خَطِّيًّا وَأَرَاحَ عَلَيَّ نَعَمًا ثَرِيًّا وَأَعْطَانِي مِنْ كُلِّ رَائِحَةٍ زَوْجًا وَقَالَ كُلِي أُمَّ زَرْعٍ وَمِيرِي أَهْلَكِ)، والغريب في حديثها عن زوجها الآخر أنها لم تذكر اسمه، ولا كنيته، بخلاف حديثها عن أبي زرع، فقد ذكرت كنيته، وساقتها مساق التعظيم والتعجب، بل ذكرت كل من يمت له بصلة وسبب؛ وذلك لفرط حبها لأبي زرع، وشدة تعلقها وولعها به، أما زوجها الآخر فلم تذكر عنه شيئاً سوى قولها (فَنَكَحْتُ

بَعْدَهُ رَجُلًا) بالتنكير، وقد عبرت من خلال هذا التنكير عن كثير من المعاني والدلالات لمحل هذا الرجل، ومكانته من قلبها، ولذا فهو مجرد رجل لا يختلف عن الآخرين من الرجال، وليس له سمة معينة تميزه عن غيره من الرجال، رغم ماهو عليه من الثراء. [١٣٠]

ولم يكن سبب ذلك فقره، وشظف عيشه، أو بخله عليها، وتقصيره معها، بل كان معها على النقيض من ذلك، إذ كان رجلاً شريفاً عزيزاً، ذا ثراء وسعة، يدل على ذلك وصفها له في قولها (فَنَكَحْتُ بَعْدَهُ رَجُلًا سَرِيًّا رَكِبَ شَرِيًّا وَأَخَذَ خَطِّيًّا وَأَرَاحَ عَلَيَّ نَعَمًا ثَرِيًّا وَأَعْطَانِي مِنْ كُلِّ رَائِحَةٍ زَوْجًا وَقَالَ كُلِي أُمَّ زَرْعٍ وَمِيرِي أَهْلَكِ)، وقد سجعت في كلامها بين عدة ألفاظ في بيان وصفها لزوجها، وقد وظفت هذا السجع توظيفاً حسنا في بيان ما عليه من الغنى والثراء، كما تضمن كلامها ـ كذلك الجناس، وهو جناس ناقص، وذلك في قولها: (سَرِيًّا، شَرِيًّا، ثَرِيًّا) ، فقد اختلفت هذه الكلمات في حرف واحد، ولولا هذا الحرف لكان الجناس تاماً بين هذه الألفاظ، ولا يخفى أثر هذا الجناس، فإن له وقعاً في الآذان، وجرساً تصغي له النفوس، وتقبل عليه، ولذا فهو يؤثر فيها ويشجيها، ولم يقف حسن الجناس عند هذا، فقد وظفته توظيفاً حسناً في بيان ما عليه زوجها من الغنى والثراء، ومن هنا يتضح أثره في بيان المعنى وإيضاحه، ومدى قدرته على إظهار مقصودها وبيانه.

فهذه نعوته، وتلك أوصافه، أما حاله معها، وموقفها منه فقد أبانته بقولها: (وَأَرَاحَ عَلَيَّ نَعَمًا ثَرِيًّا وَأَعْطَانِي مِنْ كُلِّ رَائِحَةٍ زَوْجًا وَقَالَ كُلِي أُمَّ زَرْعٍ وَمِيرِي أَهْلَكِ)، وقد كان اختيارها للفظة (ثَرِيًّا) دقيقاً موحياً كذلك، فقد أشارت بها إلى أنه ساق لها إبلاً كثيرة، فالثري: هو المال الكثير من الإبل وغيرها، ولا يُقال له ثرياً إلا إذا كان كثيراً وفيراً[١٣١] ، فقد ساق لها ذلك كله؛ محبة لها، وتعبيراً عما يكنُه في قلبه لها

من المحبة والمودة، وقد دل على ذلك أسلوب التقديم، فقد قدمت الجار والمجرور (عَلَيَّ) على المفعول (نَعَمًا) إشارة إلى أنها المقصودة بذلك، وأنها صاحبة حظوة ومنزلة في قلبه.

وفي قولها (وَأَعْطَانِي مِنْ كُلِّ رَائِحَة زَوْجًا وَقَالَ كُلِي أُمَّ زَرْعٍ وَمِيرِي أَهْلَكِ) بيان منها لحسن تعامله معها، وكرمه، وتقصد بذلك: أنه أعطاني من كل شيء زوجاً، وقد توافر في هذه الجملة كثير من الأساليب البيانية، وتضافرت فيما بينها لإظهار كرم هذا الزوج، وبيان حبه لزوجته، وحفاوته بها، ومن ذلك: إيجاز القِصر في قولها (مِنْ كُلِّ رَائِحَة زَوْجًا)، فقد تضمنت هذه الألفاظ معاني كثيرة، فقد أحاطت بهذه الألفاظ القصيرة جميع أنواع الحيوانات التي تُرعى، فقد أعطاها من كل ذلك زوجين اثنين، وأنى لنا أن نحصر ذلك، أو نحدده؟ ولكن نعدد منه ولا نعده، يدل على الإيجاز ـ أيضاً ـ وعلى تلك الكثرة: لفظة (كل)، وهي من ألفاظ العموم، وقد وظفت هذه الدلالة في بيان كثرة ما أعطاها زوجها من النعم، وساقه إليها، وفي ذلك الدلالة التامة على كرم زوجها، وشدة حبه لها .

وقد أشارت إلى هذا المعنى وقررته من خلال أسلوب التقديم في قولها (مِنْ كُلِّ رَائِحَة) فقد قدمت هذه الألفاظ على المفعول (زَوْجًا)، وفي هذا التقديم تعجيل في بيان هذا الشيء، وحفاوة به، وفي ذلك إشارة إلى عِظم قدره، وجليل أثره في نفس زوجها، ونفسها.

وقد ورد في رواية عند مسلم لفظة (ذابحة)[١٣٢] بدلاً من (رائحة) في قولها (وَأَعْطَانِي مِنْ كُلِّ رَائِحَةٍ زَوْجًا)، والمقصود: المذبوحة، وعلى هذا فيكون في لفظة (ذابحة) مجاز عقلي، وعلاقته المفعولية، فقد ذكرت ذابحة، والمراد المذبوحة، إذ المعنى: كل ما يُذبح من الإبل، والبقر، والغنم، وغيرها[١٣٣]، وهذا كقول الله ـ تعالى ـ

﴿ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴾ {الحاقة: ٢١}، والعيشة لا ترضى، وإنما يرضاها الناس، ويختارونها، فهم الذين ينعمون بها، وهم الذين يتقلبون فيها، ولكن في التعبير بـ(راضية) إشارة إلى أن هذه العيشة قد بلغت الحد في الحسن والهناء، كما بلغت الغاية في النعيم والحبور، فقد رضيت هي عن نفسها، فما بالك بساكنيها؟ ولذا فإن هذا المجاز من تمام نعيم أهل الجنة، وكمال حبورهم وسرورهم.

وكذلك تعبير أم زرع بقولها (ذابحة)، أبلغ من قولها (مذبوحة)، فهي لا تزال حية، لم تُذبح بعد، وكأنها هي صاحبة الشأن، وصاحبة القرار، كما أن في ذلك إشارة إلى أن هذه النعم التي ساقها إليها تحت تصرفها وملكها إن شاءت ذبحتها، وإن شاءت تركتها، ومن ثَم جاء التعبير بهذا الأسلوب دلالة على هذا المعنى، كما أن هذا المجاز ودلالاته يحقق مقصود أم زرع في إشارتها إلى كرم زوجها. وحبه لها.

ولم يقف كرم زوج أم زرع عند هذا الحد، بل تجاوزه إلى كرم القول، ولطف اللسان، وحسن المعاملة، وقد أشارت إلى ذلك بقولها (وَقَالَ كُلِي أُمَّ زَرْعٍ)، وقد تضمن الأمر في قوله (كُلِي) والنداء في قوله (أُمَّ زَرْعٍ) كل معاني التودد والعطف والحنو والحب، فهو يأمرها أمر الحبيب لحبيبه، ويناديها بأحب الكنى إلى قلبها، ويحثها على الأكل، ويرغبها فيه، وفي ذلك تعبير عن حبه الدفين لها، وحدبه عليها، بل تجاوز ذلك إلى ما هو أبعد، فقد شمل كرمه أهل زوجته، فنالهم بحسن رعايته، ووصلهم بجزيل عطاياه، فهو يأذن لها بذلك، بل يأمرها أن تمير أهلها، وأن تصلهم بما يهبها من الطعام، وذلك دلالة على حبه لها، كما أن لهذا الفعل أثراً حميداً في نفس الزوجة، فهي تُسر بذلك وتسعد؛ إذ لا شيء أحب إلى الزوجة من أن ترى زوجها يكرم أهلها، ويصل أقاربها بالصلات والعطايا.

ولكن ومع هذا كله، وبرغم ما قدمه لها زوجها الثاني من مال وعطف، وعناية ومودة وحفاوة إلا أنها لا تقيم لذلك وزناً، كما أنه لا يرقى إلى منزلة أبي

زرع، الذي ملك عليها قلبها، وسيطر على عواطفها ومشاعرها، فصارت كأنها مقصورة عليه.

ولذا فإن ما قدمه زوجها الثاني لها من إكرام وحفاوة، ومن حب وتقدير كله محتقر عندها، صغير في عينيها، لا يساوي شيئاً، وليس ذا بال، ولم يقع في نفسها، ولم يحرك فيها شيئاً، ولم تطرب له وتهتز، فهو في نظرها صغير حقير إذا قيس ذلك بما كان من شأن أبي رزع، وموقفه منها، وحبها له، وقد عبرت عن ذلك أصدق تعبير وأعجبه في قولها (فَلَوْ جَمَعْتُ كُلَّ شَيْءٍ أَعْطَانِيهِ مَا بَلَغَ أَصْغَرَ آنِيَةِ أَبِي زَرْعٍ) .

ويعد قولها هذا من المبالغة في بيان مكانة أبي زرع في نفسها، ومبالغة كذلك في عدم قبول زوجها الثاني، وميلها إليه، فقد أعمى حبها لأبي زرع بصيرتها، وغطى على عقلها وبصرها، وأصبحت لا ترى أفعال زوجها الثاني ـ وهي عظيمة ـ شيئاً، ولا تقدرها قدرها، ولا تعطيها حقها من الثناء والإشادة، ولن تجد أبلغ تعبيراً، وأوضح إبانة عن ذلك من قولها (قَالَتْ فَلَوْ جَمَعْتُ كُلَّ شَيْءٍ أَعْطَانِيهِ مَا بَلَغَ أَصْغَرَ آنِيَةِ أَبِي زَرْعٍ).

وقد لجأت أم زرع إلى أسلوب المبالغة في ذكر هذه الحقيقة، وبيان موقفها من زوجها الثاني، وفي بيان حبها لأبي زرع، وتعلقها به، وأي مبالغة أشد من قولها (قَالَتْ فَلَوْ جَمَعْتُ كُلَّ شَيْءٍ أَعْطَانِيهِ مَا بَلَغَ أَصْغَرَ آنِيَةِ أَبِي زَرْعٍ)، فلك أن تتصور عطاياه كلها، وقد أشارت إلى ذلك بقولها (كُلَّ شَيْءٍ أَعْطَانِيهِ)، وقد أجملت بعضه في حديثها المتقدم، فلو تجمع هذا كله فلنيبلغ آنية من أواني أبي زرع، بل ليس أي آنية، بل الصغيرة منها، فيالله أي مبالغة في هذا القول! وما ذاك الحب الذي تغلغل في سويدائها لأبي زرع؟ فصارت لا ترى عطاء غيره شيئاً حتى ولو ملأ الخافقين، وفي هذا دلالة على أن الحب ـ كما يذكر ابن حجر ـ: «يستر الإساءة؛ لأن أبا زرع مع

إساءته لها بتطليقها لم يمنعها ذلك من المبالغة في وصفه إلى أن بلغت حد الإفراط والغلو». (١٣٤)

وللبلاغيين مواقف متباينة من المبالغة قبولاً ورفضاً، فمنهم من يرفضها؛ لأنهم يرون أن فيها خروجاً عن المألوف، وبعداً عن الواقع، ولذا فلا يعدونها من محاسن الكلام، ولا من جملة فضائله، وحجتهم في ذلك:« أن خير الكلام ما خرج مخرج الحق من غير إفراط ولا تفريط ». (١٣٥)

ويقابل هؤلاء فريق آخر يقبل المبالغة، ويرتضيها، ويعدها من فنون القول وأساليبه، ويدخلها في باب البلاغة والفصاحة، ولقد ذكر العلوي(ت٧٤٩هـ) هذه المسألة وفصلها تفصيلاً حسناً، وذكرها ذكراً معتدلاً، يقول:«أما من عاب المبالغة فقد أخطأ؛ فإن المبالغة فضيلة عظيمة، لا يمكن دفعها وإنكارها، ولولا أنها في أعلى مراتب علم البيان لما جاء القرآن ملاحظاً لها في أكثر أحواله، وجاءت فيه على وجوه مختلفة لا يمكن حصرها، فقد أخطأ من عابها على الإطلاق، وأما من استجادها على الإطلاق فغير مصيب على الإطلاق أيضاً؛ لأن منها ما يخرج عن الحد فيعظم فيه الغلو والإغراق، فيكون مذموماً... ولكن خير الأمور أوساطها، فما كان من الكلام جارياً على حد الاستقامة من غير إفراط ولا تفريط فهو الحسن لا مراء فيه، فيكون فيه نوع من المبالغة من غير خروج، ولا تجازو الحد». (١٣٦)

والذي أراه أن كلام أم زرع من المبالغة المقبولة التي لم تخرج عن دائرة المعقول، ولا المألوف، بل إن كلامها هذا من التعبيرات الدارجة التي يعرفها العامي، ويستخدمها في كلامه، فهي من المعاني المطروحة في الطريق، ولذا فلا أرى غضاضة عليها في ذلك، وليست مبالغتها في ألفاظها بأشد من غرابتها من موقفها من زوجها الثاني الذي أغدق عليها، وبالغ في إكرامها، وإكرام أهلها، ولا بأغرب من حبها

لأبي زرع، وتعلقها به، رغم تطليقه لها، وزواجه من غيرها، فإن موقفها من زوجها الأول، وموقفها من زوجها الثاني لهو أشد غرابة، وأكثر تعجباً.

ثم خُتم هذا الحديث الماتع بأروع مافيه، خُتم بقول أفصح العرب قاطبة، خير من نطق الضاد، فكان الأبلغ قولاً ومضموناً، وكان مسك الختام لهذا الحديث العظيم، ولن تجد أبلغ قولاً، ولا أشرق عبارة، ولا أفصح بياناً من قوله ﷺ لعائشة – رضي الله عنها –: (كُنْتُ لَكِ كَأَبِي زَرْعٍ لِأُمِّ زَرْعٍ)، وقد جاء قوله هذا في غاية البيان، وفي غاية الإشراق، وفي غاية الإيجاز، ولا غرو في هذا فقد أُوتي جوامع الكلم، وهو من جوامع كلمه، ودرر بيانه، فقد أوجز عبارته، وفخم المعنى، وكثَّفه بهذه العبارة المختصرة، أشار فيها إلى حنوه عليها، وإلى الألفة والمودة التي بينهما، وإلى المحبة التي تملَّكتْ كل واحد منهما نحو صاحبه، فكان – بحق – الأسوة والقدوة ﷺ .

بل إن حب أبي زرع لأم زرع، وحب أم زرع لأبي زرع لا يساوي شيئاً عند حب رسول اللهﷺ لعائشة – رضي الله عنها –، وحب عائشة – رضي الله عنها – لرسول اللهﷺ، بل لو جُمع حب أم زرع لأبي زرع لما بلغ أصغر ذرة من حب عائشة –رضي الله عنها – لرسول اللهﷺ، وحب رسول الله لها، وكم بين هذا وذاك من الفروق والمغايرة؟! وما هذا التشبيه إلا للتوضيح والتقريب، وإلا فشتان شتان بينهما، وقد صرحت عائشة – رضي الله عنها – بهذه الحقيقة في قولها: (يارسول الله بل أنت خير من أبي زرع).[١٣٧]

ولذا فيُعد هذا الأسلوب من التشبيه المقلوب، ولهذا التشبيه أسراره البلاغية التي يُراد تحقيقها، والوصول إليها، فقد شُبه هنا الكامل بالناقص، وأُلحق الأعلى بالأدنى، وهذا خلاف ما جرت عليه العادة في أسلوب التشبيه؛ إذ يُلحق الأدنى بالأعلى، والضعيف بالقوي، وللتشبيه المقلوب مقاماته التي يأتي فيها، وأغراضه التي

يسعى إلى تحقيقها، ومن شواهده قوله ـ تعالى ـ﴿ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡبَيۡعُ مِثۡلُ ٱلرِّبَوٰاْۗ ﴾{البقرة: ٢٧٥}، ومنه قول البحتري[١٣٨]:

في حمرة الورد شكل من تلهبها وللقضيب نصيب من تثنيها

فقد قلب الشاعر الأمر، وعكس المسألة، ولذا فإن من أسماء هذا التشبيه: المعكوس، أو المنعكس[١٣٩]، وبيان ذلك:أن الشاعر هنا قلب المعنى وعكسه، فالأصل أن تشبه محاسن الفتاة بطلعة البدر، وأن يُشبه تثنيها بتثني القضيب، ولكنالشاعر عكس المعنى، وقلب التشبيه، ولا يخفى ما في ذلك من المبالغة، في إثبات المعنى وتقريره، وقد وظَّف الرسولﷺ هذا الأسلوب في بيان حبه لعائشة – رضي الله عنها –، ومكانتها في نفسه، صلى الله عليه وسلم .

الخاتمـــة:

وبعد هذه الرحلة الماتعة، والإبحار الشائق مع هذا الحديث الفريد في لغته وبيانه، بعد هذا كله تصل الرحلة إلى مبتغاها، والبحث إلى غايته، وهي رحلة ممتعة، تمَّ التنقل خلالها بين كلامهؤلاء النسوة، وقد كان في غاية الإشراق، وفي غاية التشويق ـ كذلك ـ، فقد كان مميزاً بموضوعه، كما كان مميزاً بأسلوبه، وقد تضمن كثيراً من الأساليب البلاغية، والنكت البيانية التي تمت الإشارة إليها في تضاعيف هذا البحث، وهذه بعض النتائج التي أمكن الاهتداء إليها خلال تأمل هذا الحديث، ودراسته، ومن أبرز هذه النتائج ما يأتي:

١ـ أن لغة الحديث في غاية البيان، وعلى درجة كبيرة من الفصاحة، وقد تفاوتن هؤلاء النسوة في البلاغة والفصاحة، فكان بعضهن أبلغ من بعض، وهو أمر طبعي، وقد ظهر ذلك جلياً في منطقهن.

٢ـ تفاوت كلام النسوة في الغرابة والوضوح، بيد أن في كلامهن جميعاً ائتلافاً بين الألفاظ ومعانيها، فقد استوجب غرابة خُلُق بعض الأزواج، وغلظة تعاملهم الألفاظ الغريبة، كما جاءت الألفاظ الرقيقة العذبة في كلام بعض الزوجات اللواتي حسن أخلاق أزواجهن، وحسن - كذلك - تعاملهم معهن، فكانوا أرق من النسيم، وألين من مس الأرنب.

٣ ـ غلب على لغة الحديث الأسلوب الخبري، بل يكاد يكون قائماً على هذا الأسلوب، وقد قلَّ ورود الأسلوب الإنشائي، وهو أمر طبعي - كذلك -؛ فالحديث قائم على الإخبار، فكل زوجة تخبر عن زوجها، وتحدث عنه، فقد تعاقدن وتعاهدن ألاَّ يكتمن من أخبار أزواجهن شيئاً، فلا غرو - بعد ذلك - أن يبرز الخبر فيكلامهن.

٤ ـ وله صلة وثيقة بما قبله: أن الأسلوب الخبري الذي جاء في كلام النسوة كان من الضرب الابتدائي، فقد خلا كلامهن جميعاً من أدوات التوكيد، ولا غرابة في ذلك؛ وذلك أن المخاطب بهذا الأسلوب خالي الذهن، فهو لا يعرف عن أمر الزوج شيئاً إلا ما تذكره زوجته عنه، فهو ليس منكراً ما يُقال له، ولا متردداً، ولذا خلا كلامهن جميعاً من أدوات التوكيد، ولم ترد إلا جملة واحدة في الحديث مؤكَّدة في قول الثانية: (إِنِّي أَخَافُ أَنْ لَا أَذَرَهُ)، فجاء كلامها مؤكَّداً بـ(إنَّ).

٥ـ برز في هذا الحديث كثير من الأساليب البلاغية بروزاً واضحاً، وظهر جلياً في كلام كثير من هؤلاء النسوة، وقد وظفن تلك الأساليب توظيفاً جيداً في الحديث عن أزواجهن، ومن أبرز هذه الأساليب:

أ ـ الكناية، فقد كثر ورودها في كلامهن، وفي ذلك توظيف منهن لخصائص هذا الأسلوب؛ لكون الكناية تمتاز بالإقناع مع الإمتاع؛ وذلك أنها تذكر القضية

مصحوبة بدليلها، ولذا فكانت المرأة من خلال أسلوب الكناية تذكر دليلاً قاطعاً على صدق قولها، وإثباتاً يقوي موقفها من زوجها.

وثمة سبب آخر قد يكون خلف كثرة ورود أسلوب الكناية في كلام النسوة، وهو: أنهن لجأن إلى الكناية دون التصريح، وكأن في ذلك هروباً منهن من التعاقد والتعاهد الذي قطعهن على أنفسهن، ولذا فكل واحدة ملزمة ألاَّ تكتم من خبر زوجها شيئاً، لكنها ليست ملزمة بالتصريح، ولذا لجأت إلى أسلوب الكناية، فكانت خير وسيلة لتحقيق هذه الغاية؛ لِمَا يتميز به من خصائص ومزايا.

ب ـ أسلوب الطباق: ولعل سبب ورود هذا الأسلوب، هو طبيعة هذا المحسن البديعي؛ لِمَا يتميز به من ذكر الألفاظ وأضدادها، ولذا فالمرأة من خلال هذا الأسلوب تجمع كثيراً من خصائص زوجها، وتستقصي أحواله، كما تستقصي ـ كذلك ـ جميع أحوالها معه، فتذكر جميع مواقفه المتضادة معه.

ج ـ أسلوب التوجيه، فكلام كثير من هؤلاء النسوة يحتمل المدح والذم معاً، فيصح أن يكون مدحاً، كما يصح – أيضاً – أن يكون ذماً، وكأن المرأة حين لجأت إلى هذا الأسلوب كأنها لا تريد أن تصرح بحقيقة ما عليه زوجها، ولا تريد أن يتبين موقفها من زوجها، وطريقة تعامله معها، وكأن السبب فيتوافر هذا الأسلوب – كذلك -: هو الهروب من ذلك القيد الذي ألزمن به أنفسهن، وتعاقدن عليه إلا يكتمن من أخبار أزواجهن شيئا.

د ـ أسلوب السجع، فقد كان حاضراً في جلِّ كلام هؤلاء النسوة، وذلك توظيف منهن لهذا الأسلوب، توظيف لأثره اللفظي والمعنوي، فكان أثره اللفظي سبباً لإصغاء النسوة، ومن ثَم التأثير فيهن، كما أنها سخرن – كذلك – السجع في إظهار مقاصدهن، وتحقيق أغراضهن، فجاء السجع في كلامهن سمحاً لا تكلف فيه، ولم

تلوي كل واحدة أعناق المعاني من أجله، بل كان في خدمة المعنى.

هـ أسلوب التشبيه، فقد كثر وروده في هـذا الحـديث، وقـد أراد النـسوة مـن ذلك استثمار خصائصه البيانية في بيـان حـال أزواجهـن وإيـضاحه أتم إيـضاح، فقـد كشفن من خلال هذا الأسلوب مزايا أزواجهن، وعيوبهم كذلك، وذلـك لمـا في هـذا الأسلوب من تصوير للمعنى، ونقله من المعقول إلى المحسوس، ومن الخفي إلى الجلي.

هذه بعض النتائج التي أمكن الوصول إليها من خلال هذه الدراسة، وغيرهـا كثير ورد في تضاعيف هذه الدراسة وثناياها.

الحواشي والتعليقات

(١) انظر: فتح الباري: ٩/ ١٦٤، لابن حجر.

(٢) انظر: فتح الباري: ٩/ ١٦٤.

(٣) بغية الرائد فيما في حديث أم زرع من الفوائد: ٢٦.

(٤) انظر: المصدر السابق: ٢٤.

(٥) انظر: فتح الباري: ٩/ ١٦٥.

(٦) انظر: بغية الرائد: ٢٨ .

(٧) انظر: فتح الباري: ٩/ ١٦٦

(٨) انظر: مادة: عَهَد : معجم مقاييس اللغة، لابن فارس، و: أساس البلاغة، للزمخشري، والقاموس المحيط: للفيرروزآبادي.

(٩) انظر: مادة: عقد: معجم مقاييس اللغة.

(١٠) انظر: مادة: عقد: معجم مقاييس اللغة.

(١١) انظر: فتح الباري: ٩/ ١٦٨.

(١٢) انظر: فتح المنعم بشرح صحيح مسلم: ٩/ ٣٩٣، لموسى شاهين.

(١٣) بغية الرائد: ١٣٢.

(١٤) انظر:المصدر السابق: ٤٣ .

(١٥) انظر: فتح الباري: ٩/ ١٧٠.

(١٦) المصدر السابق: ٩/ ١٦٨.

(١٧) انظر: صحيح مسلم بشرح النووي: ٨/ ٢٣٠

(١٨) لفظة (وعر) في صحيح مسلم، وليست في البخاري.

(١٩) إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري: ١١/ ٤٦٤، للقسطلاني.

(٢٠) بغية الرائد: ١٣٢.

(٢١) انظر: تحرير التحبير: ٢٣٢، لابن أبي الإصبع.

(٢٢) انظر: مادة: وغل، لسان العرب.

(٢٣) الإيضاح في علوم البلاغة: ٣/ ٢٠٢، للخطيب القزويني.

(٢٤) انظر: ديوانه: ٥٣

(٢٥) انظر: معجم المصطلحات البلاغية وتطورها: ١٣٦، د. أحمد مطلوب.

(٢٦) انظر: تحرير التحبير: ٢٣٢

(٢٧) الصناعتين: ٤٠٤، لأبي هلال العسكري.

(٢٨) انظر: الفائق في غريب الحديث: ٢/ ٤٢٠، للزمخشري

(٢٩) انظر: فتح الباري: ٩/ ١٦٨.

(٣٠) انظر: نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز: ٢٠١، للرازي.

(٣١) بغية الرائد: ١٣٢.

(٣٢) المصدر السابق: ٥٢.

(٣٣) انظر: فتح الباري: ٩/ ١٦٩، و:إكمال إكمال المعلم:٨/ ٣٠١، للوشتاني.

(٣٤) انظر: الفائق في غريب الحديث: ١/ ١٧١.

(٣٥) العمدة: ١/ ٥١٣، لابن رشيق القيرواني.

(٣٦) نقد الشعر: ١٥٢.

(٣٧) انظر: الفائق في غريب الحديث: ٢/ ٤٢١ .

(٣٨) المصدر السابق: ٢/ ٤٢١.

(٣٩) انظر: الكشاف: ١/ ١١١، للزمخشري.

(٤٠) فتح المنعم: ٩/ ٣٩٣ .

(٤١) ذكر هذه الرواية ابن حجر في الفتح، ونسبها إلى يعقوب بن السكيت، (انظر: فتح الباري: ٩/ ١٧٠).

(٤٢) انظر: مادة: ذلق: أساس البلاغة.

(٤٣) فتح الباري: ٩/ ١٧٠.

(٤٤) انظر: مجمع الأمثال: ٣/ ٣٥٨، للميداني.

(٤٥) انظر: بغية الرائد: ٥٥

(٤٦) انظر: معجم البلدان:٢/ ٧٤.

(٤٧) فتح الباري: ٩/ ١٧٠.

(٤٨) انظر: فتح الباري: ٩/ ١٧٠.

(٤٩) مفتاح العلوم: ٤٢٧، للسكاكي.

(٥٠) انظر: فتح الباري: ٩/ ١٧٠.

(٥١) انظر: مجمع الأمثال: ٣/ ٧٢ .

(٥٢) انظر: المصدر السابق: ٣/ ٤١١.

(٥٣) انظر:فتح الباري: ٩/ ١٧١.

(٥٤) الإيضاح: ٣/ ٢٠٨ .

(٥٥) انظر: ديوانه: ٩٧ .

(٥٦) بغية الرائد: ١٧١ .

(٥٧) بغية الرائد: ٤٦٨ .

(٥٨) انظر: بغية الرائد: ٥٨.

(٥٩) انظر: مادة: لّفَّف: القاموس المحيط.

(٦٠) من بلاغة النبوة: ٨٧، د. عبدالقادر حسين.

(٦١) انظر: مادة: شَفَفَ، لسان العرب.

(٦٢) الإيضاح: ٦/ ١٩ .

(٦٣) من بلاغة النبوة:٨٧ .

(٦٤) المصدر السابق: ٨٧ .

(٦٥) انظر: فتح الباري: ٩/ ١٧٢ .

(٦٦) الفائق في غريب الحديث:٢/ ٤٢١ .

(٦٧) من بلاغة النبوة: ٨٧ .

(٦٨) انظر: أسرار البلاغة: ٧، عبدالقاهر الجرجاني.

(٦٩) أسرار البلاغة: ١٤ .

(٧٠) انظر: السنن الكبرى:٨/ ٢٤٣ .

(٧١) انظر: فتح الباري: ٩/ ١٧٢ .

(٧٢) غريب الحديث: ٢/ ١٧٣ .

(٧٣) انظر: من بلاغة النبوة:٨٨ .

(٧٤) انظر: فتح الباري:٩/ ١٧٣ .

(٧٥) انظر: غريب الحديث: ٢/ ١٧٣ .

(٧٦) السنن الكبرى:٨/ ٢٤٤ .

(٧٧) انظر: فتح الباري: ٩/ ٧٣ .

(٧٨) انظر: مجمع الأمثال:١/ ٣٦٧ .

(٧٩) الطراز: ٤٦٨، للعلوي.

(٨٠) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية:٢٣٠، للرافعي.

(٨١) المصدر السابق:٢٣٠ .

(٨٢) انظر ديوانه: ٧٥.

(٨٣) التبيان في علم المعاني والبديع والبيان:٣٤٩ .

(٨٤) من بلاغة النبوة:٨٨ .

(٨٥) انظر: مادة: زرنب: لسان العرب .

(٨٦) انظر: بغية الرائد:٧٣ .

(٨٧) الوساطة بين المتنبي وخصومه:١٤ .

(٨٨) ذكر هذه الزيادة القاضي عياض في كتابه "بغية الرائد": ٧٢.

(٨٩) انظر: فتح المنعم: ٩/ ٣٩٤ .

(٩٠) انظر: غريب الحديث: ٢/ ١٧٧ .

(٩١) انظر: مادة: كني: لسان العرب.

(٩٢) الإيضاح:٥/ ١٥٨ .

(٩٣) انظر: بغية الرائد:٧٥ .

(٩٤) انظر: مقدمة كتاب (الكناية والتعريض): ٤٤ .

(٩٥) انظر: الإيضاح:٥/ ١٦٤ .

(٩٦) دلائل الإعجاز: ٧٠، عبدالقاهر الجرجاني .

(٩٧) المصدر السابق: ٧١ .

(٩٨) مفتاح العلوم: ٤٠٥ .

(٩٩) التبيان في علم المعاني والبديع والبيان: ٢٦٤ .

(١٠٠) انظر: الإيضاح: ٥/ ١٧٦ .

(١٠١) بغية الرائد:٦٧ .

(١٠٢) انظر: فتح الباري: ٩/ ١٧٤ .

(١٠٣) التبيان في علم المعاني والبديع والبيان: ٢٦٥

(١٠٤) بغية الرائد: ١٤٦ .

(١٠٥) انظر: فتح الباري: ٩/ ١٧٥ .

(١٠٦) انظر: السنن الكبرى:٨/ ٢٤٤ .

(١٠٧) بغية الرائد: ٨١ .

(١٠٨) فتح الباري: ٩/ ١٧٥ .

(١٠٩) انظر: غريب الحديث: ٢/ ١٨١ .

(١١٠) المصدر السابق: ٢/ ١٨٢.

(١١١) فتح المنعم: ٩/ ٣٩٤ .

(١١٢) بغية الرائد:٨٣ .

(١١٣) انظر: المصدر السابق:٨٣ .

(١١٤) بغية الرائد: ١٣٢ .

(١١٥) انظر: عمدة القارئ: ١٩/ ١٧٣ .

(١١٦) انظر: فتح الباري: ٩/ ١٧٦ .

(١١٧) بغية الرائد: ١٤٧ .

(١١٨) انظر: غريب الحديث: ٢/ ١٨٤ .

(١١٩) انظر: ديوانه: ١٧.

(١٢٠) انظر: ديوانه: ١٥٥ .

(١٢١) مفتاح العلوم: ٤٠٢ .

(١٢٢) غريب الحديث: ٢/ ١٨٩

(١٢٣) انظر: غريب الحديث: ٢/ ١٩٣ .

(١٢٤) بغية الرائد: ١٠٠ .

(١٢٥) انظر: فتح الباري: ٩/ ١٧٩ .

(١٢٦) انظر: ديوانه: ٦٢ .

(١٢٧) انظر: فتح الباري: ٩/ ١٧٩ .

(١٢٨) انظر: غريب الحديث: ٢/ ١٩٥ .

(١٢٩) بغية الرائد: ١٠٤ .

(١٣٠) بغية الرائد: ١٤٧ .

(١٣١) انظر: غريب الحديث: ٢/ ١٩٧ .

(١٣٢) انظر: ديوانه: ٦٤ .

(١٣٣) انظر: عمدة القارئ: ١٩/ ١٧٧ .

(١٣٤) انظر: عمدة القارئ: ٩/ ١٨٢ .

(١٣٥) انظر: المصدر السابق: ١٩/ ١٧٧ .

(١٣٦) انظر: بغية الرائد: ١١٦ .

(١٣٧) انظر: من بلاغة النبوة: ٩٦ .

(١٣٨) انظر: من بلاغة النبوة: ٢/ ٢٠٠ .

(١٣٩) انظر: صحيح مسلم: كتاب فضائل الصحابة، باب: ذكر حديث أم زرع، رقم الحديث: ٢٤٤٨ .

(١٤٠) انظر: شرح صحيح مسلم: ٨/ ٢٣٨، للنووي.

(١٤١) فتح الباري: ٩/ ١٨٦ .

(١٤٢) معجم المصطلحات البلاغية وتطورها: ٥٨٣ .

(١٤٣) الطراز: ٤٥٦ .

(١٤٤) انظر: السنن الكبرى: رقم الحديث: ٩٠٩٣

(١٤٥) انظر: ديوانه:٤/ ٢٤١٠.

(١٤٦) انظر: الطراز: ١٤٨ .

فهرس المصادر والمراجع

١ـ الإيضاح في علوم البلاغة، للخطيب القزويني، شرح وتعليق وتنقيح د.محمد عبدالمنعم خفاجي، المكتبة الأزهرية للتراث، القاهرة، ط: ٣، (١٤١٣هـ)

٢- إرشاد الساري، لشرح صحيح البخاري، للإمام شهاب الدين أحمد القسطلاني، ضبطه وصححه محمد عبدالعزيز الخالدي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط: ١، (١٤١٦هـ) .

٣ ـ أسرار البلاغة، لعبدالقاهر الجرجاني، قرأه وعلق عليه محمود شاكر، مطبعة المدني، القاهرة، ط: ١، (١٤١٢هـ) .

٤ ـ إكمال إكمال المعلم، للإمام محمد بن خليفة الوشتاني، ضبطه وصححه محمد سالم هاشم، دار الكتب العلمية، بيروت، ط: ١، (١٤١٥هـ) .

٥ ـ بديع القرآن، لابن أبي الإصبع، تقديم وتحقيق حفني محمد شرف، نهضة مصر للطباعة والتوزيع، (د – ت)

٦ـ بغية الرائد فيما في حديث أم زرع من الفوائد، للقاضي أبي الفضل عياض اليحصبي، تحقيق سعد عبدالباقي علي، منشورات محمد علي بيضون، لنشر كتب السنة والجماعة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط: ١، (١٤٢٤هـ) .

٧ ـ تأريخ بغداد، للخطيب البغدادي، دار الكتب العلمية، بيروت، (د – ت)

٨ ـ التبيان في علم المعاني والبديع والبيان، لحسين بن محمد الطيبي، تحقيق وتقديم، د. هادي عطية مطر الهلالي، عالم الكتب، بيروت، ط: ١، (١٤٠٧هـ) .

٩ـ تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن، لابن أبي الإصبع المصري، تقديم وتحقيق د. حفني محمد شرف. (د – ت)

١٠ـ التحرير والتنوير، للشيخ محمد بن طاهر بن عاشور، (د – ت).

١١ـ درة الضرع لحديث أم زرع، محمد عبدالكريم القزويني، ضبطه وعلق عليه مشهور حسن سلمان، دار ابن حزم، بيروت، ط: ١، (١٤١١هـ) .

١٢ـ دلائل الإعجاز، عبدالقاهر الجرجاني، قرأه وعلق عليه محمود شاكر، مطبعة المدني، القاهرة، ط: ٢، (١٤١٣هـ) .

١٣ـ ديوان أبي تمام، تقديم وشرح: د. محيي الدين صبحي، دار صادر، بيروت، ط:١، (١٩٩٧م) .

١٤ـ ديوان الأعشى، شرحه وقدمه مهدي محمد ناصر الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط:٢، (١٤١٣هـ).

١٥ـ ديوان امرئ القيس، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، ط:٥. (د – ت).

١٦ـ ديوان البحتري، عُني بتحقيقه وشرحه والتعليق عليه: حسن كامل الصيرفي، دار المعارف، القاهرة، ط: ٢. (د – ت).

١٧ـ ديوان بشار بن برد، جمعه وحققه السيد بدر الدين العلوي، دار الثقافة، بيروت، (١٤٠٣هـ).

١٨ـ ديوان الحطيئة، تحقيق نعمان أمين طه، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط: ٢، (١٤٠٧هـ).

١٩ـ ديوان طرفة بن العبد، شرح الأعلم الشنتمري، تحقيق: درية الخطيب، ولطفي الصقال، مطبوعات مجمع اللغة العربية، دمشق، (١٣٩٥هـ) .

٢٠ـ سرُّ الفصاحة، لأبي محمد عبدالله بن سنان الخفاجي، تحقيق علي فودة، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط:٢، (١٤١٤هـ) .

٢١ـ السنن الكبرى، للإمام أبي عبدالرحمن أحمد بن شعيب النسائي، قدم له د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي، أشرف عليه شعيب الأرنؤوط، حققه وخرَّج أحاديثه حسن عبدالمنعم شلبي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط:١، (١٤٢١هـ) .

٢٢ـ شرح حديث أم زرع، لأبي عبدالله محمد البعلي، تحقيق د. سليمان العايد، مكتبة الطالب الجامعي، مكة المكرمة. (د – ت).
٢٣ـ شرح ديوان الخنساء، لأبي العباس ثعلب، قدَّم له وشرحه د. فايز محمد، دار الكتاب العربي، بيروت، (١٤١٩هـ) .
٢٤ـ شرح السنة، للإمام الحسين بن مسعود البغوي، تحقيق زهير الشاويش، وشعيب الأرنؤوط، المكتب الإسلامي، بيروت، ط: ٢، (١٤٠٣هـ) .
٢٥ـ الشمائل، لأبي عيسى محمد الترمذي، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، (١٤١٢هـ).
٢٦ـ صحيح البخاري، للإمام محمد بن إسماعيل البخاري، دار السلام، الرياض، ط:١، ١٤١٧هـ .
٢٧ـ صحيح ابن حبان، بترتيب ابن بلبان، لعلاء الدين علي بن بلبان الفارسي، حققه وخرَّج أحاديثه شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت،ط: ٢، (١٤١٤هـ).
٢٨ـ صحيح مسلم، بشرح النووي، حققه وفهرسه عصام الصبابطي، وحازم محمد، وعماد عامر، طُبع على نفقة سمو الشيخ محمد بن راشد آل مكتوم، دار أبي حيان للنشر والتوزيع، ط:١، (١٤١٥هـ) .
٢٩ ـ الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، ليحي بن حمزة العلوي، مراجعة وضبط وتدقيق محمد عبدالسلام شاهين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط: ١، (١٤١٥هـ) .
٣٠ ـ علم البيان، دراسة تحليلية لمسائل علم البيان، د. بسيوني عبدالفتاح فيود، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، ط: ٢، (١٤١٨هـ) .
٣١ ـ العمدة في محاسن الشعر وآدابه، لابن رشيق القيرواني، تحقيق: محمد قرقزان، دار المعرفة، بيروت، ط:١، (١٤٠٨هـ) .
٣٢ ـ عمدة القاري شرح صحيح البخاري، للإمام بدر الدين محمود العيني، دار إحياء التراث العربي، بيروت، (د – ت) .
٣٣ ـ غريب الحديث، لأبي عبيد القاسم بن سلاَّم الهروي، تحقيق د. حسين محمد شرف، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، القاهرة، (١٤٠٤هـ).

٣٤ ـ الفائق في غريب الحديث، لجار الله محمود الزمخشري، وضع حواشيه إبراهيم شمس الدين، دار الكتب، بيروت، ط: ١، (١٤١٧هـ) .
٣٥ ـ فتح الباري، بشرح صحيح البخاري، للإمام الحافظ أحمد بن حجر العسقلاني، رقم كتبه وأبوابه وأحاديثه محمد فؤاد عبدالباقي، دار الريان للتراث، القاهرة، ط:٢، (١٤٠٩هـ) .
٣٦ ـ فتح المنعم بشرح صحيح مسلم، للأستاذ موسى شاهين لاشين، دار الشروق، القاهرة، ط: ١، (١٤٢٣هـ) .
٣٧ ـ القاموس المحيط، لمجد الدين محمد الفيروزآبادي، تحقيق مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، بيروت، ط: ٢، (١٤٠٧هـ) .
٣٨ ـ كتاب الصناعتين: الكتابة والشعر، لأبي هلال العسكري، تحقيق: علي البجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي، ط:٢ . (د - ت).
٣٩ ـ الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، لجار الله محمود الزمخشري، مطبعه مصطفى البابي الحلبي وأولاده، (١٣٩٢هـ) .
٤٠ ـ لسان العرب، لابن منظور، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط: ٢، (١٤١٧هـ).
٤١ ـ مجمع الأمثال، لأبي الفضل أحمد بن محمد الميداني، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الجيل، بيروت، (١٤١٦هـ) .
٤٢ ـ مجمع الزوائد ونبع الفوائد، لنور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي، مؤسسة المعارف، بيروت، (١٤٠٦هـ).
٤٣ ـ معجم البلدان، لياقوت الحموي، تحقيق فريد عبدالعزيز الجندي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط:١، (١٤١٠هـ)
٤٤ ـ المعجم الكبير، لأبي القاسم سليمان بن أحمد الطبراني، تحقيق حمد بن عبدالمجيد، الطبعة العراقية، (د - ت).
٤٥ ـ معجم المصطلحات البلاغية وتطورها، د. أحمد مطلوب، مكتبة لبنان ناشرون، ط:٢، (١٩٩٦م) .

٤٦ ـ معجم مقاييس اللغة، لأبي الحسن أحمد بن فارس، بتحقيق وضبط عبدالسلام هارون، دار الجبل، بيروت، ط: ١، (١٤١١هـ) .
٤٧ ـ مفتاح العلوم، للإمام أبي يعقوب يوسف السكاكي، ضبطه وكتب هوامشه، وعلق عليه: نعيم زرزو، دار الكتب العلمية، بيروت، ط:١، (١٤٠٣هـ) .
٤٨ ـ من بلاغة النبوة، د. عبدالقادر حسين، دار التراث العربي للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة. (د – ت).
٤٩ ـ نقد الشعر، لابن قدامة، تحقيق: كمال مصطفى، مكتبة الخانجي، ط:٣ . (د – ت).
٥٠ ـ نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز، للإمام فخر الدين الرازي، تحقيق د. أحمد حجازي السقا، دار الجبل، بيروت، المكتب الثقافي، القاهرة، ط:١، (١٤١٢هـ) .
٥١ ـ الوساطة بين المتنبي وخصومه، للقاضي على بن عبدالعزيز الجرجاني، تحقيق: علي البجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم، دار القلم، بيروت. (د – ت) .